الذَّنْب و التّوبَة..؟

أبحاث الشّيْخ عَلِيّ رِضَا بناهيان



بين يديك عزيزي القارئ (١٤)محاضرة

للشيخ علي رضا بناهيان

ونذكر لكم عناوين محتوى المحاضرات:

- **أين العَجَب في قضية المعصية؟**
- **ألا يوحي موضوع الذنب والتوبة بأن الله يحب عباده حباً عظيماً؟!**

- **ما الذي يجعلنا لا نستمتع بالقدر الكافي من تديّننا؟!**
- **أحد العوائق أمام استمتاعنا بالدين فهمُنا الخاطئ له**

- **إن أحد أروع جوانب الدين هو حوار الله مع عباده حول "الكف عن المعاصي"**
- **أين مكمَن الجمال في مفهوم الذنب والثواب أو الطاعة والمعصية؟**

- **لماذا علينا الاعتذار من الله إذا أذنبنا؟**
- **لماذا يشعر الكثيرون بأن الدين يفرض عليهم إملاءاته؟**

- **لماذا يحتاج التديّن إلى كل هذا القَدر من الدعوة والتبيين؟/ علامَ يُتّخَذ الدين هُزواً ويُستهزأ به كل هذا الاستهزاء؟**
- **الدين بحاجة إلى بيان لأنه عميق الغور/ العقول الضحلة لا تفهم الدين فتسخر منه**

◉ ما هي الخطوة الأولى لإقناع الناس بالتديّن والكف عن المحارم؟

◉ علينا أولاً أن نقنع الطفل بأنه: "من المتعذّر إدارة الحياة دون منهج ونظام"

◉ يمكن للمراقبة في سبيل ترك المعصية أن تشكل محور تسلية في حياتنا!

◉ الاقتناع بالحياة المُمَنهجة يمهد لتقبّل التديّن وترك المعصية

◉ كيف نُقنع أنفسنا بالتديّن؟/ كيف نجعل في أنفسنا المقدرة على التديّن؟

◉ التديّن لمن اكتسب المهارة والمقدرة ليس غير صعب فحسب، بل وجذاب أيضاً

◉ أيمكن أن يعيش الكل في المجتمع العالمي تحت ظل دولة واحدة ودين واحد؟

◉ نحن بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم"!

◉ ما الأضرار الناجمة عن فكرة "أن التدين صعب"؟

◉ لماذا عبارة "دُسْ على رغباتك" غير سليمة؟

- أي ألوان النفعية سيئ؟ هو أن يسعى الإنسان وراء المنفعة القليلة
- العامل بدينه لا يخطو خطوة إلا بما ينسجم ومصالحه

- الذي يريد التديّن عليه أن يوفر في شخصيته بعض الممهّدات
- من أجل التديّن وترك المعصية لا بد للمرء أولاً أن يكون مخططاً لحياته

- قبل أن نتجه صوب الدين علينا أن نعلم أننا نعيش في عالَم منظَّم أموره محسوبة
- قبل أن نتدين علينا أن نقتنع بأنه ليس من حقنا في هذا العالم المنظم أن نمارس ما نشاء

- المشكلة الأساسية تكمن في التديّن، لا في الإيمان!
- التدين حُلو ويجعل العيش حلواً أيضاً



- نود خلال هذه المحاضرات التحدث عن موضوعين عجيبين جداً في عالم الخلقة والأجواء الدينية؛ أحدهما الذنب، والآخر المغفرة والتوبة.
- أين موضع العَجَب في قضية الذنب؟... لقد خلق الله تعالى هذا العالم والكائنات في منتهى التنظيم والدقة. دونك قوانين الفيزياء والكيمياء في الكون فانظر كم قد صُمّمت بدقة! بل لم يكن بالإمكان أصلاً أن يجعل الله تعالى خلقة دونما حساب ونظام، وإلا كانت عملَت مخلوقاتُه ذاتها على إبادة أحدها الآخر.
- في هذا العالم، حيث خلق الله كل شيء بنظام ونسق، أعطى عز وجل الإنسانَ إرادةً واختياراً وحرية. ومن الطبيعي أن يخطئ هذا الإنسان ويخالف القوانين أحياناً. لكن العجيب هو أن يُسمّي الله هذا العمل "ذنباً" أو "معصية" قائلاً للإنسان: "لقد عصيتَني!" فمع أننا لم نُؤذِ ولم نظلم إلا أنفسنا ولم نوجّه صفعة إلا لأنفسنا، يرى الله أنه هو المقصود بهذا الفعل!.. وهو أمر في منتهى الغرابة!

ألا يوحي موضوع الذنب والتوبة بأن الله يحب عباده حباً عظيماً؟!

- أصل لفظة "الذَنْب" من "الذَّنَب"، وعلة هذه التسمية هي أن الذنب فعلٌ ذو تبعات سلبية للإنسان؛ فالذنب الذي نقترفُه يجُرّ إلى أعراض سلبية تلحق بنا نحن، لكن الله تعالى يقول: "تعال وتُب من فعلك هذا، واطلب مني المعذرة!"
- كما أنّ كلمة "عصيان" تعني عدم الطاعة والاتّباع؛ أي: إني قطعتُ صِلَتي بالله تعالى. وإن لهذا الأمر آثاراً وضعيّة سيئة لي أنا، لكن الله يقول: "لقد عصيتني.. هيّا تُبْ من فعلتك!".. ألا يحكي هذا شدة محبة الله لعباده؟!

ما الحكمة من "توجيه الله الأوامر لنا"؟

- أســاســاً لماذا زوّدنا الله بهذا المنهج – المســمّى بالدين – وفرضه علينا "فرضاً" حتى إذا بدَرَت منا مخالفة له سُمّيَت "مخالَفة لأمر الله"! فالطبيب يزوّد مريضــه بوصــفة للعلاج، غير أننا - بصـفتنا مرضـى - لا نكون مضـطرين للاعتذار من الطبيب إذا لم نشــأ العمل بوصـفته؛ ذلك أننا نُلحق الضـرر بأنفسـنا، لا بالطبيب!
- لكن الله تعالى قد دخل في صُــلب حياتنا قائلاً: "إذا اقترفتَ هذه الأخطاء تكون قد عصــيتني!... إذا أضــرَرتَ بنفســك فسأستاء منك!... أنا آمرك بما ينفعك!" وكأنه تعالى يقول: " من أجلي أنا كُفَّ عن هذه الأفعال (الذنوب)!"
- يتوجّب علينا القيام بهذه الأفعال وإن لم يأمرنا الله بها (لأنها في مصــلحتنا) فلماذا إذن يُدخل الله أمرَه في القضــية؟ أليس هذا من فرط محبته تعالى بالإنســان؟! أيّ حكمة أخرى وراء ذلك يا ترى؟! أليســت هذه أعجب ظاهرة في مجال الدين؟!
- ليس من العجيب أن يأمرنا الله بالصــلاة والصــوم، إذ من المعلوم أنها أعمال في صــالحنا، لكن العجَب هو أن يُطلق ســبحانه على عدم إتياننا بهذه الأعمال اســم "الذنب" "ومعصــية الله"! أي إن الله ينزعج حين أُضِــرّ أنا بنفســي! فموقف الله عز وجل من هذه الأوامر هو أنه يدخل بنفســه في صُلب القضية ويجعل الجنة ثواباً للأعمال التي تنفعنا، ويتوعّد بالنار؛ شــأن الأم التي تهدّد ولدَها الجاهل من فرط شفقتها عليه.
- لاحظوا بأي إصــرار وحماس يتحدث الله تعالى في كتابه العزيز! فالذي لا ينظر إلى القرآن الكريم بوصفه رسالة حب من الله تعالى لعباده فإنه - في الحقيقة - لا يفقه معاني كلمات هذا الكتاب ومداليلها.
- مفهوم الذنب والمعصــية ومحلّهما الحســاس في منظومة الدين ألا يحكيان محبةَ الله العارمة تجاهنا؟! وإن كان الرد ســلبياً فأيّ معنى يمكن أن يحملانه يا ترى؟! هل لنا أن

نقول – والعياذ بالله – إن الله أشــبه بسـلطان جائر يغضب إذا لم نمتثل له فيلقّننا درســـاً؟!... الله لا هو قاسٍ، ولا ظالم، وتصرفه هذا لا يُفصح سوى عن شدة محبته.

لماذا مفهوم "التوبة" عجيب؟

- المفهوم العجيب الآخر في الدين هو التوبة والاسـتغفار. لكن ما المراد من التوبة؟ التوبة تعني أنك قد خرقتَ القانون بذنب ارتكبتَه وأن تبعاته هي في طريقها إليك. وإن أراد الله تعالى منع هذه التبعات الناجمة عن معصـــيتك فلا بد أن يُرِيك نسَـــقَ العالم. أتعلم ما ســـيحدث إذا اضــطرب نظام العالم؟ كأن يتّفق، خلال الأربع والعشرين ساعة، أن تختل جاذبية الأرض في ســـاعاتٍ ما! أو يتعطل قانون تماســـك الذرات أو الخلايا فيما بينها! إن نسق العالم بأسره سيختل ويضطرب متأثراً باختلال نظام قطعة صغيرة منه!
- بالطبع لا بد لنا، إذا عصـينا الله، أنْ نلمس أثر عملنا هذا، أما إذا تُبنا إليه فســـيحُول اللهُ تعالى بيننا وبين آثار هذه الخطيئة، بل إن الله – في الحقيقة – ســـيقف بوجه نظام العالم، لكن بطريقة لا تؤدّي إلى أيّ تخلخل في أي نقطة من هذا العالم.

الله يقبل التوبة دائماً، إذن هو باستمرار يأتي بمعجزة!

- لماذا موضـوع التوبة عجيب؟! لأن الله في قضـية التوبة يقف أمام نظام العالم بطريقة لا يضــطرب فيها هذا العالم. وفي الواقع فإن معجزة تحصـــل هنا. فقبول الله للتوبة يعني أنه تعالى يحول دون الضـرر الناجم عن معصـيتنا.. الضـرر الذي يُفترَض، وفقَ نظام العالم، أن يحيق بنا.
- تصـــوَّر معجزةً "كشَـــقّ القمر" مثلاً؛ فحين ينشـــق القمر لنصفين لا بد أن يتخلخل نظام المجموعة الشمسية، لكن بما أن الأمر معجزة، فإن نصـفَي القمر ســيلتصـقان ثانية دون أن يتحرّك ســـاكن! على أن القمر لم ينشـــق إلا مرة واحدة، أما التوبة فإن الله يتقبّلها على نحو موصول، أي إنه

باســـتمرار يأتي بمعجزة! بل لربما أتى جلّ وعلا على أثر معصيتنا من دون أن نتوب منها فمحاه ولم يذَرْهُ يظهر!

لماذا يستغفر أولياء الله كل هذا الاستغفار؟

- إننا أمام قضـــيتين في غاية الغرابة؛ هما الذنب، والتوبة! إحداهما أن الله يعُدّ الذنب الذي نرتكبه نحن والضـربة التي نوجّهها بأنفســنا لأنفســنا، معصـية له عز وجل وخروجاً عن طاعته فيخاطبنا: "اسـتغفرني لمعصيتك هذه!" والأغرب هو قوله: "إن تُبتَ إلَيَّ فســأقف أمام نظام هذا العالم ولا أدع أثر ذنبك يظهر لك لا في الدنيا ولا في الآخرة!"
- مضافاً إلى القضيتين العجيبتين هاتين فإن هناك أمراً آخر هو عجيب أيضـــاً وهو: لماذا يتوب أولياء الله ويســـتغفرون كل هذه التوبة والاســـتغفار؟!... إنهم لم يقترفوا إثماً! ما هو ســبب إصــرارهم الشــديد على الاســتغفار بين يدي الله؟ وهذا موضوع آخر سـنتطرق إليه في المحاضرات القادمة.
- إن من لوازم التـديّن هو أن يســـتوعـب المتـديّن مفهوم المعصية ويعلم أنه بارتكابه هذه المعصية إنما يضر بنفسـه، لا أنه يُغضب ربه فحسـب! يحسـب الكثيرون أنهم بارتكابهم الخطـايـا إنمـا يُغضـــبون الله تعـالى ولا يظنون أنهم - في الواقع - بأنفســـهم قد ألحقوا الضـــرر. ولذا فإنهم إذا همّوا إلى التوبة تراهم يطلبون إرضـــاء الله كي لا يظل مســـتاءً منهم. وكفى!

لماذا لا ينظر المجتمع إلى الذنب على أنه "كارثة"؟

- لا يأخذ المجتمع قضـية المعصـية بجد. فالكل يحتج على من يخالف الإشــارة الضـوئية في التقاطع أنْ: "لماذا تُربك نظام المدينة!" أما تجاه المعصـــيـة فإنهم لا يحملون مثل هذا الفهم!
- قد يعود سـبب عدم نظر الناس إلى المعصية على أنها كارثة إلى أن الأنظمـة التعليميـة لا تعلّم هـذا للأطفـال في

صغرهم. فهل يعلّمون التلاميذ خلال السنوات الدراسية الاثنتي عشرة مفهوم الذنب يا ترى؟

- ما هو الذنب؟.. هل هو مجرد فعل يُغضب الله تعالى؟! أم إنه حقاً شيء رهيب إلى درجة أن على المرء أن يستغرب أنْ: "إلهي، لقد آذيتُ نفسي، فما بالك أنت انزعَجت؟" فيجيب تعالى: "لأنني أحبك حباً جماً.. أعظم من حب الأم لولدها..".
- الذي يرتكب الذنب هو كمَن يقطع يده أو إصبعه بسكين أو ساطور ملحِقاً الأذى بنفسه. والتوبة هي كما لو قطعتَ إصبعك بنفسك ثم قلت لربك: "إلهي، أصلحه لي!"
- الاغتياب هو حقاً أكل الشخص للحمِ أخيه في الدين ولقد كشف رسول الله(ص) هذا الأمر لأصحابه في بعض المواطن كي يعوا أثر هذا الذنب القبيح.

الذنب هو "أن نتصرف خلافاً لمصالحنا"

- نحن لم نستوعب جيداً إلى الآن أن الذنب يعني الإضرار بالنفس أولاً! يظن الكثيرون أن المعصية هي الدوس على المقدسات والعمل بما يخالف المعتقدات وممارسة سلوك غير إيماني! والحال أن المراد من المعصية بالدرجة الأولى، ليس هذا. فالذنب - قبل أن يكون ممارسة ما يخالف معتقداتنا - هو أن نتصرف بما يخالف مصالحنا!
- لعلنا نحن من قدّم الدين للناس خطأً من الأساس. فقولنا: "الدين منهاج يقوم على المعتقدات والإيمان" لا يعبّر عن فهم دقيق للدين. فالدين - أولاً - هو منهاج يقوم على مصالح الإنسان، سواء الدنيوية منها أو الأخروية. من هنا فإنه لا بد - كمرحلة أولى - أن نكون أنانيّين بعض الشيء كي لا نذنب!
- الأنانية - في الأساس - ليست شيئاً قبيحاً. فهذا أمير المؤمنين(ع) ينكر إحسانه لأحد ويصرح بأنّ كل ما قام به كان لنفسه(ع)! فقد روي عنه(ع) أنه قال: «مَا أَحسَنتُ إِلَى أَحَدٍ وَلا أَسَأتُ إِلَيهِ لأَنَّ اللهَ تَعَالى يَقُولُ: «مَنْ عَمِلَ

صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها» (فُصّلت/46)» (متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر آشوب/ ج1/ ص118).

- ولو لم يكن عند أهل البيت(ع) أنانية، بالمعنى الحقيقي للكلمة، أكانوا سيبكون وينتحبون من أجل الجنة والنار كل ذاك البكاء والانتحاب؟! ففي القرآن الكريم أن الله يعاقب الإنسان السيّئ بأن يجعله غير أناني: «وَلا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُم» (الحشر/19).

المرحلة الأولى من الالتفات إلى الذنب هي أن تكون أنانياً بمعنى الكلمة!

- المرحلة الأولى من عملية الالتفات إلى مفهوم الذنب وإدراك قضية المعصية هي أن يحفظ الإنسان نفسه ويرعى مصالحه، أو لنقل: أن يكون "أنانياً"! وإن علينا في المدارس أن ننشئ الأطفال بطريقة يتنبّهون فيها إلى أن كل اختيار يختارونه سيترك أثراً مستديماً عليهم؛ وهو أن يُترك التلميذ ليختار بكامل حريته بحيث إذا اتفق أن كان اختياره سيئاً أحسَّ بالندم عليه. أي ينبغي ان نضع الأطفال في معرض الاختيار كي يروا تبعات اختيارهم السلبية أو الأيجابية.
- عندما تسأل الله أن: "إلهي، أعِنّي على أن لا أعصيك"، فكأنك تقول له: "إلهي، أعِنّي كيلا أصنع ما يضرّني". وقد سألوا آية الله بهجت(ره) أن يزوّدهم بذِكر فقال: "الذِكر هو أن تعزم على عدم المعصية! فما إن تعزم على ذلك حتى يعينك الله".
- تعالوا، في شهر رمضان المبارك هذا، نتصف ببعض الأنانية، ونهتم بمصالحنا، بل بأعلى مصالحنا. فإن إحدى ركيزتَي عملية الالتفات إلى المعصية هي أن نلاحظ مصالحنا، أما ركيزتها الثانية فهي أن نلحظ حرمة الله ومحبته لنا (وهو ما سنتكلم عنه في المحاضرات الآتية).

ما الذي جعل الله يصطفي آدم(ع) بعد الذي ارتكبه؟

- لقد عصـــى آدم(ع) ربه فكان أن هبط من الجنة ومن ذلك المقام الرفيع: «وَعَصَـــى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» (طه/121) وفرّط بميزات عظيمة؛ أي فرّط بثواب الامتثال لقول ربه.
- ثم يعبّر القرآن الكريم بـأن الله من ثم اختـاره للنبوة، وقَبِـل توبتـه، وهـداه: «ثُمَّ اجْتَبـاهُ رَبُّـهُ فَتَـابَ عَلَيْـهِ وَهَـدَى» (طه/122). فما الذي جعل الله عز وجل يجتبي آدم(ع) بعد أن عصـاه؟ لأنه(ع) تاب توبة في منتهى الروعة حين جعل السماوات والأرض تضطرب لبكائه وأنينه!

ما الذي يجعلنا لا نستمتع بالقدر الكافي من تديّننا؟!

- ينبغي للتديّن أن يتجلى بصـورة يكون معها جذاباً، ومســلّياً، ومثيراً، ومنشّطاً للإنسـان. وليس المقصود من هذا أنه لا بد أن يكون الدين هكذا للجميع؛ فالذي لم يشتغل على نفسه قيد شعرة ولم يجعل لنفسه أي قيمة إضافية لا يكون لدينه تلك القيمة الكبيرة حتى وإن كان مســلياً وممتعاً بالنســبة له. أما إذا أوجَد الإنسان لروحه وفكره قيمة مضافة فلا بد أن يلتذ بتديّنه ولا بد أن يكون الدين بالنســـبة له مثيراً باعثاً على النشاط.
- لماذا لا نصــيب من حياتنا اللذة الأوفر؟ نحن الذين نســعى لممارســـة الدين لِمَ لا نجني من تديّننا القدر الكافي من المتعة، ومن ثم ترى أفئدتنا تهفوا لنمط حياة اللادينيين؟! لماذا لا يتحسر غير المتدينين على حياة المتدينين؟! مع أن القرآن الكريم يصـــرح بـأن الكفـار يودّون لو يخرجونكم من إيمانكم من فرط حسدهم لكم: «وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَـــداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـــهِم» (البقرة/109).. مَن الذي يحســـدونه عادةً؟! إنهم يحســدون الذي يعيش في لذة أكبر!

أحد العوائق أمام استمتاعنا بالدين فهمُنا الخاطئ له

- التدين مثير ومُسَلٍّ، كل ما هنالك أن علينا أولاً أن نبذل بعض الجهد لنفتح لأنفسنا باب الاستمتاع بالدين. علينا أن نكتشف ما الذي يجعلنا لا نجني من تديّننا القدر الكافي من اللذة؟
- أحد عوائق استمتاعنا بالدين هو ما نحمله عنه من تصورات خاطئة وفهم مشوّه تولّد لدينا لأي سبب كان؛ فإما أنهم لم يعلّمونا الدين بصورة صحيحة، أو أننا ممن عندهم مشكلة مع الدين؛ قد سمعنا عنه أقاويل، وصدقناها. وإن علينا تصحيح هذه التصورات كي نتمكن من الالتذاذ بالدين. هذه التصورات الخاطئة إما أن تتصل بالدين عموماً، أو أن ترتبط ببعض أجزائه.

من المواضيع التي نحمل عنها فهماً خاطئاً موضوع الذنب

- من المواضيع التي نحمل عنها تصوّراً خاطئاً وتشغلنا باستمرار هو موضوع الذنب. ما المراد من الذنب؟ وما الحكمة من بروز مفهوم اسمه "الذنب"؟ ولماذا وُضع العذاب عقاباً للمذنب؟
- مفهوم الذنب هذا هو من عجائب عالم الخلقة! فإنني أرتكب خطأ يضرّني أنا، لكن الله يتدخل قائلاً: "لقد عصيتني!" يجب أن نتأمل في أنه ما الذي يجعل الله يدخل في هذه القضية ويطلق على خطئنا - الذي يحيقُ ضررُه بنا نحن - اسمَ الذنب والعصيان، ويُدخِلنا في تماس مباشر معه؟!

الخطوة الأولى على طريق معرفة الذنب: لنعرف "أن الذنب خطأ يضرّ بنا نحن"

- لا يحمل الناس فكرة صحيحة تماماً عن المعصية؛ فهم يتصورون أنها لا تضر بهم، وأنهم بمعصيتهم إنما يُغضبون الله فحسب! وهذا فهم بعيد عن الصواب. العجيب في قضية

الذنب هو أنني أضر نفسي بارتكابه لكن الله يسميه "ذنباً" وأنه عصيان له هو، ويستاء مني بسببه!

- ولكي نتعرف على الذنب جيداً علينا – كخطوة أولى – أن نعرف أنه خطأ يرتكبه الإنسان فيضر به هو وأنّ له، في هذا العالم المنظّم إلى أبعد الحدود، آثاراً سلبية تلحق بفاعله بطبيعة الحال. فلو أدرك المذنب هذا للَجَأ إلى الله متوسلاً: "إلهي، «ظَلَمْتُ نَفسِي» (دعاء كميل بن زياد النخعي) فلا تدع آثار هذه الخطيئة تحيق بي!"

يتصور البعض أن المعصية في نفسها لا تضرّ به هو، بل تُغضب الله فحسب!

- يتصور الكثيرون أن المعصية، في حد ذاتها، ليست قبيحة وهي لا تشكل خسارة لهم، إنما هم يُغضبون الله باقترافها فحسب! وهذا فَهْم خاطئ للمعصية لا بد أن يتغير. كما يظن كثيرون أيضاً أن المؤمنين قد عاهدوا الله على أن لا يعصوه، فإن صدَر منهم تصرف خاطئ، سُمّي هذا التصرف "ذنباً!" أما خارج نطاق الدين فهذا التصرف – في نفسه – لا هو خاطئ ولا هو ضارّ بصاحبه!
- لكن إصبعي، سواء أكنتُ داخل الدين أو خارجه، ستنفصل عن يدي إن قطعتها بسكين أو ساطور وسأتألّم، وليس لهذا أي صلة بالدين والإيمان. فلا ينبغي أن نتصور أن الذنب يرتبط باختيارنا فيما يتصل بالعقيدة والإيمان، وأن المعتقدات أمر ذوقي وروحي اختاره البعض، فإن لم يكونوا معتنقين لدينٍ ما فسيكونون في مأمَن من شر مفهوم اسمه "المعصية"!

الذنب هو خطأ يصدر من الإنسان ويُلحق به ضرراً، سواء أكان متديناً أم لم يكن!

- الخطوة الأولى هي أن نعلم أن الذنب فعلٌ يضرّ بنا نحن. ليت المجتمع يقتنع بأن "الذنب هو خطأ يصدر من الإنسان ويُلحق به هو ضرراً، سواء أكان متديناً أو لم يكن!" يا ليتنا كنا قد أقنعنا أطفالنا في المدارس منذ البداية بأن "إضرار

المرء بنفسه أمر بذيء! وأن تفريط الإنسان بمصالحه شيء قبيح!"

- روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «لَوْ لَمْ يَنْهَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ مَحَارِمِهِ لَوَجَبَ أَنْ يَجْتَنِبَهَا الْعَاقِلِ» (غرر الحكم/7595) لأن العاقل يعلم أن في ارتكابها خسران له.
- وروي عن رسول الله(ص) أنه قال: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ؛ يَعْنِي أَنَّهُ يَكُفُّ ذَا الدِّينِ وَمَنْ لا دِينَ لَهُ عَنِ الْقَبِيحِ، فَهُوَ جِمَاعُ كُلِّ جَمِيل» (وسائل الشيعة/ ج12/ ص168). لا دخل للحياء بالدين؛ فإن كنتَ ذا حياء فسوف لا تفعل القبيح، ولذا فسوف لا تتضرر، وهذا مطلوب للجميع. أما الدين فيأتي هنا ليؤكد على كل ما هو مفيد وضروري للإنسان.
- فعن رسول الله(ص) أيضاً أنه قال: «مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ لِغَيْرِ اللهِ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ. فَقَالَ عَلِيٌّ(ع): لِغَيْرِ اللهِ؟! قَالَ: نَعَمْ وَاللهِ صِيَانَةً لِنَفْسِهِ، يَشْكُرُهُ اللهُ عَلَى ذَلِك» (من لا يحضره الفقيه/ ج4/ ص353)؛ أي من ترك شرب الخمر ليس لوجه الله، بل لبواعث بعيدة عن الله (لأي سبب كان؛ كأن يكون عرف مضارّها له) فسيسقيه الله من مشروبات الجنة! لماذا؟ لأنه حفظ نفسه والله يفرح حين يحفظ الإنسان نفسه من الأضرار.

لماذا دخل الله بنفسه في قضية الذنب وهو يُصرّ كل إصرار لنكف عن المحارم؟

- الذنب فعلٌ يُلحق بنا ضرراً، والله يستاء إن فعلنا شيئاً يضُرّ بنا، ويفرح إن قمنا بعمل ينفعنا. لكن المؤسف أنّ "الله" لم يتم تقديمه للناس بهذه الصورة.
- السؤال هو: لماذا دخل الله بنفسه وبكل قوة في موضوع المعصية، بل إنه يهدد بالعذاب، ويصرّ علينا بالكَفّ عن المحارم؟ إلى درجة أن بإمكاننا القول، إذا صح التعبير: إن عقدة قصة الله مع عباده في القرآن الكريم هي موضوع الذنب.. حول ارتكاب الذنب وعدم ارتكابه! فلقد بعث الله الرسُل، وجاء بأئمة الهدى، وأنزل القرآن من أجل هذه

العقدة المهمة المتمثلة بالذنب، وهو أنه "لا يجوز لنا أن نمارس ما يُلحق بنا الضرر!"

العقدة الرئيسة في القرآن هي المعصية

- إن العقدة الرئيسة في القرآن الكريم هي الذنب والكفّ عن المحارم. حتى أثناء خوضه في مواضيع من مثل الكفر والإيمان، أو الشرك والتوحيد يكون موضوع المعصية حاضراً أيضاً؛ لأن الشرك أكبر الذنوب، وأن الكفر ذنب بحد ذاته. وإنْ تكلم عن الإيمان، فالإيمان ذو القيمة في نظر القرآن هو الذي ينهَى عن المنكر ويكون سبباً لحسن السلوك؛ أي السلوك الذي يصب في صالح صاحبه. إذن في وسعنا أن نقول: القرآن كتاب يبحث في موضوع الذنب.
- لماذا يشدّد الله تعالى كل هذا التشديد على كفّنا عن المعاصي؟ ولقد أجبنا على هذا السؤال في المحاضرة السابقة إجمالاً وقلنا: بسبب محبة الله لعباده؛ فهو تعالى من فرط محبته لنا يشدد على ضرورة عدم اقترافنا الذنوب وعدم إنزالنا الضربات بأنفسنا. فهل نحن مصدّقون أن الله رؤوف رحيم إلى هذا الحد؟

الداعي الأول لإصرار الله على كفّنا عن المعاصي هو "أننا لا نبالي بما ينفعنا ويضرنا"

- لماذا يسمي الله تعالى الخطأ الذي أرتَكِبُه أنا تجاه نفسي "ذنباً"، ويحدد له أوامر، ويعيّن له عقاباً وثواباً؟ الجواب الإجمالي لهذا السؤال هو "محبة الله المفرطة تلك تجاه عباده". على أننا إذا أردنا الإجابة مفصلاً قلنا: الداعي الأول لهذا هو أن الناس لا تعرف ما ينفعها وما يضرها، أو أنها تعبث بمصالحها ولا ترى الاهتمام بها أمراً جاداً! أي ليس كل من نقول له: "هذا الأمر ينفعك جداً" أو: "ذاك الفعل يضرك كل ضرر" فإنه سيصغي إلينا ويجتنب ما فيه ضرره!
- فعن الإمام الصادق(ع) قوله: «وَلَوْ كَانَ الإِنْسَانُ إِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى أَكْلِ الطَّعَامِ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَاجَةِ بَدَنِهِ إِلَيْهِ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ

طِبَاعِهِ شَـــيْئاً يَضْـــطَرُّهُ إِلَى ذَلِكَ كَانَ خَلِيقاً أَنْ يَتَوَانَى عَنْهُ أَحْيَاناً بِالثِّقْلِ وَالْكَسَـــلِ حَتَّى يَنْحَلَ بَدَنُهُ فَيَهْلِكَ» (توحيد المفضل/ ص75)؛ أي إن الكسـل مسـتَشـرٍ في الناس إلى درجة أن الرجل إذا لم تؤلمه معدته من الجوع وتدفعه إلى الأكل فإنه لا يفتش عن الطعام حتى يهلك!

- انظر ماذا يصـنع الركون إلى الراحة بالبشـــر؟! فما لم يُصِــب أجسـامَهم ألمٌ أو لذة شـديدة فإنهم لا يحرّكون سـاكناً حتى من أجل منفعتهم أو اجتناب مضـــرتهم! فماذا عســـى الله يصـنع مع عباد كهؤلاء؟ من هنا تراه عز وجل يدخل بنفسـه في صـــلب الموضـــوع فيوجّه إلينا الأوامر، ويفرض العقاب والثواب، ويشـرّع الحلال والحرام كي نتصرّف بما فيه نفعنا!
- فالداعي الأول الذي يجعل الله يبدّل الفعل - الذي هو في الأسـاس لصالحنا - إلى "فرضٍ ديني" ويعيّن له ثواباً، وعقاباً قاسـياً هو أنه إذا ترك الإنسـان وشـأنه فإن الأخير - وبسـبب تكاسـله وتقاعسـه - سـوف لا يفتش عن منفعته، بل وقد لا يدرك أين يكمن نفعُه؟

الداعي الثاني: نحن في الغالب لا ندرك مصالحنا الطويلة الأمد

- الـداعي الثاني هو أننـا في كثير من الأحيـان لا نرى حتى المصـــالح القصـــيرة الأمد التي في متناول أيدينا، ومن هنا يرى الله تعالى نفســـه – وحســـب تعبيرنا الدارج – مُجبَراً على إصـــدار الأوامر علّنا نتزحزح بأوامره! فكيف لنا – والحال هـذه – أن نرى مصـــالحنـا الطويلـة الأمـد؟! ولأننـا لا نـدرك مصالحنا الطويلة الأمد لم يكتف الله - من أجل بلوغنا إياها - بإرشـــادنا بل أخذ يأمرنا بها ويحدد الثواب والعقاب عليها؛ إذ من الصـــعب أن يتولد لدى المرء الدافع لتأمين مصـــالحه القصيرة الأمد، فما بالك بتلك الطويلة الأمد!
- ولا تختلف طبيعـة الـداعي الثـاني عن الأول، لكننـا أكثر مـا ركّزنا ضـــمن الـداعي الأول على المصـــاديق التي تمثـل مصـــالحنا الآنية والعينية؛ بمعنى أننا لا نرى حتى مصــالحنا الشـــخصـــية الآنية ولا نتحرك لصـــيانتها فما بالك بإقلاعنا عن

الســـلوكيات المناهضــة لهذه المصـــالح! أمّا الداعي الثاني فيتصـــل بتلك المصـــالح الطويلة الأمد التي لا نجد الدافع لتأمينها أبداً إلا بأمر من الله عز وجل!

الداعي الثالث: إن الله استثمر فينا حس العبادة كي لا نفعل ما يضر بنا

- الداعي الثالث هو أننا نمتلك حسّـــاً اســـمه "حسّ العبادة". وقد أقر ذلك علماء النفس أيضـــاً حين ذهبوا إلى أن للبشـــر غريزة وحاجة طبيعية تدعى "العبادة"؛ أي إنهم يحبون أن يعبدوا شـــخصـــاً ما. وإن من جملة أســـباب ما نلاحظه من اكتظاظ تجمعات "الاعتكاف" و"المجالس الروحانية لشـــهر رمضـــان المبارك" وإقبال الناس عليها هو حس العبادة هذا ورغبة الناس في إشباعه.
- والله عز وجل يعلم أننا نمتلك هذا الحس وهذه الغريزة، ولذا فإنه حينما يأخذ العبد بعبادة ربه يقول الله له: "من أجلي أنا أقلع عن هذا التصرف المضر بك!" أي إن الله يســتثمر حس العبادة فينا لتحريضنا على عدم القيام بما يضرّ بنا من ذنب ومعصية! وهكذا يتولد مفهومَا الذنب والطاعة.
- حينما يرى الله أنني أخذتُ أعبده، وصـرتُ أريد إشـباع غريزة العبادة لديّ بعبادته، يســتغل تعالى هذه الفرصـة فيمنعني من بعض التصرفات والأعمال المضرة بي.
- حين تتلو القرآن تأمّل في أنه: ما الذي يجعل الله، وهو بكل هذه العظمة، يتكلم مع عباده في القرآن كل هذا الكلام حول الطاعة والمعصية؟ ألم يكن ثمة موضوع آخر يتناوله يا ترى؟! لماذا كل هذا الإصـــرار من جانبه عز وجل على أن لا نذنب؟

الكلام حول الذنب جميل من الله من ناحية؛ حيث يشكل الموضوع الرئيس للقرآن، وجميل من العبد من ناحية أخرى، حيث يؤلف الموضـــوع الأول لدعاء ومناجاة أولياء الله. وإن أروع لحظات عالم الخلقة، ألا وهي لحظات مناجاة أولياء الله مع ربهم، لتدور حول موضوع المعصية، وهو ما يؤشّر على مدى جمال هذا الموضوع.

إن أحد أروع جوانب الدين هو حوار الله مع عباده حول "الكف عن المعاصي"

- لا شك أن معظم محاور القرآن الكريم تدور حول موضوع عنوانه "المعصية"؛ فلطالما تناول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مفهوم الذنب، والتوصية بالكف عنه، وتعداد أنواعه، مضافاً إلى ألوان الثواب والعقاب والترهيب ردعاً لعباده عن إتيانه. وحين يتعرّض الله في كتابه لمثل هذا الموضوع باستمرار فلا بد أن يكون لتصرّفه هذا جمال خاص؛ فناهيك عن النفع الذي نجنيه لتركنا المعصية، فإنه لا بد لجمال كلام الباري تعالى هذا حول الكف عن المحارم أن يجتذبنا هو الآخر.
- هل يا ترى تخلو مقولة ترك المعصية من الجمال، ولا تعدو كونها مبحثاً مهمّاً؟! يتحرّج الكثيرون، إذا ما أرادوا الكلام بعض الشيء حول مواطن الجمال في الدين، عن الخوض في الذنب والثواب والعقاب محاولين التطرّق إلى أمور أخرى من الدين تصوّراً منهم أن هذا الموضوع يشكل أحد جوانب الدين غير الجميلة! في حين أنه يمثل أحد أروع مفاصل الدين.

أين مكمَن الجمال في مفهوم الذنب والثواب أو الطاعة والمعصية؟

- نودّ في هذه المحاضرة أن نتناول مفهوم الذنب والتوبة من زاوية جمالية. نحن نعلم أن الله جميل ولا يفعل ما ليس هو بجميل، وأنه خلَقَنا نحب الجمال. لكن السؤال هو: أين مكمَن الجمال في مفاهيم الذنب والثواب والعقاب، ومفهومَي الطاعة والمعصية، وفي كل هذا الخوض الذي خاضه القرآن الكريم في مفهوم الذنب؟ فنحن – في العادة – لا نرى في هذه الظاهرة جمالاً، أو قل: لا ندرك جمالها!
- إن أروع لحظات العالم، بعد نزول الوحي، هي لحظات مناجاة أولياء الله لربهم. ولماذا هي أروع لحظات العالم؟ أوّلاً على خلفية جمال نصوص الأدعية. وثانياً بسبب دموع أولياء الله المنسكبة وأنّاتهم البالغة الروعة ساعة المناجاة.. بسبب

هذا الغزل الخفيّ الجاري خلف سـطور عبارات الدعاء؛ هذا وإن كان أولياء الله لا يبالغون في الغزل وسـط الدعاء!.. وما هي مضـامين هذه الأدعية والمناجاة؟ إنها تدور في الأعم الأغلب حول الذنوب؛ كأن يقول: "إلهي، اعفُ عني.. لقد ارتكبتُ هذا الجُرم.. نهيتَني عنه، لكنني تسامحتُ..".

يشكّل "الذنب" موضوعَ أجملِ لحظاتِ مناجاة أولياء الله

- ما الذي يجعل موضـوع الذنب والثواب والعقاب - الذي هو موضوع القرآن الأول - أجمل مواضيع حياة البشـر؟ السـبب الأول في نظري هو أن موضـوعَ أروع لحظات مناجاة أولياء الله هو هذا تحديداً! أفَهَل يأتي أولياء الله بغير الجميل؟! ألم تلاحظ كم هي جميلة محبة الأم لولدها! وأيّ روعة في تعلق الولد بأمه! الكل يعترف بهذا، بل ويتغنّى به.
- إن أروع لحظات عالم الخلقة، ألا وهي لحظات مناجاة أولياء الله مع ربهم، تدور حول موضـوع المعصـية، وهو ما يؤشّـر على مدى جمال هذا الموضـوع! فالكلام حول الذنب جميل من الله من ناحية؛ حيث يشـكل الموضـوع الرئيس للقرآن، وجميل من العبد من ناحية أخرى، حيث يؤلف الموضـوع الأول للدعاء والمناجاة. ألا تلاحظ كم يتغزل أهل البيت(ع) على أعتاب الله أثناء الحديث عن المعاصـي؟! كل ما في الأمر هو أننا عادةً لا نسـتوعب روعة الحديث حول هذا الموضوع!

لماذا كان علي(ع)، وهو الذي لم يقترف إثماً، يُطيل الوقوف على "الذنوب" في مناجاته؟

- إننا قد نطرق باب الله تبارك وتعالى مسـتغفرين ولا نرى أمامنا بُدّاً من الكلام عن معاصـينا واسـتجداء المغفرة منه سـبحانه.. نتضايق بعض الشـيء لدى طرح هذه الأمور، ولذا نترقب غفران الله لآثامنا كي نغلق هذا الباب، إذ لا نود الوقوف عليه طويلاً! لكن حين نتمعّن في كلمات أمير المؤمنين(ع) لدى مناجاته ربه نراه(ع) وكأنه يفتش عن

ذريعة للحديث عن الذنوب! نحن أهل الخطايا لا نحب أن نبوح لله بخطايانا، فما بال علي(ع)، وهو الذي لم يقترف إثماً على الإطلاق، يطرح موضـــوع الذنوب؟ أي لذة يا ترى في الخوض في موضوع الذنوب لدى مناجاة الله؟

- إننا حين نســـتغفر الله أثناء مناجاته يشـــقّ علينا عادةً ذلك الجزء الذي يتوجّب أن نحدّث الله فيه عن جُرمنا، ونشـــعر بالضـــيق، ونود لو نجتاز هذه الفقرة على عجَل! والحال أنها فرصـــة ذهبية، وأن باســـتطاعتنا أن نظل العمر كله نتحدث إلى الله عز وجل حول جُرمنا هذا! بل حتى لو غفره الله لنا، فإنّ في وســـعنا كل ليلة أن نناجيه حول الجُرم ذاته وبصـور شـــتّى؛ فنقول مرة: "إلهي، كنـتَ غـائبـاً عن بـالي حين ارتكبتُه"... ونقول أخرى: "كنتُ ناســياً لأنعُمك إذِ اقترفتُه"... ونقول ثالثة: "الآن إن عفوتَ عني فما عساي أصنع من فرط خجَلي؟!" فكأن العبد ينادي ربه: "إلهي، ماذا سـأصـنع بعد أن تتجـاوز عني يوم القيـامـة؟ فحين أتـذكّر جُرمي، وأراك عفوت عني من غير اسـتحقاق مني، فما عسـاي أصنع من شـدة خجَلي؟!"

أشد علائق العالم غراماً علاقة العبد بمولاه فما هي عقدة هذه العلاقة؟

- إلى جانب كل علاقات العالم؛ مثل العلاقة الزوجية، وعلاقة الصـــداقة، وزَمالة العمل، والعلاقة بين الأب وابنه، وبين الأخ وأختـه، ..الخ ثمـة نمط آخر من العلاقـة هي "علاقـة العبـد بمولاه"!... المولى مقتدر.. المولى خالق العالم، بل وخالق كل شـــيء على الإطلاق... فما الذي يملك العبد؟ يملك النقص.. التعلّق.. الحاجة! والآن.. قامَت بين الاثنين علاقة حب؛ علاقة العبد بمولاه! وهذه العلاقة، بالمناســـبة، أشـــد العلائق غراماً!.. إنه أكثر ألوان الحب ســـخونة!.. وإنه أشـــد أنواع الحب الذي لا سَأم منه خلوداً!
- ولكل علاقة حب عُقدة (نقطة إثارة)، فما هي عقدة علاقة الحب بين العبد ومولاه؟ عقدتُها هي حينما يعطي المولى أمراً، ويعصـــيه العبد، فيقول الأخير: "عفوك!" وهذا تحديداً

يشـــكل ذريعةً لمبادلة الحب، وعقدةً لرباط الحب هذا بين العبد ومولاه.

علاقة العبد بمولاه محورها موضوع "الطاعة والمعصية والأمر"

- إن مولوية المولى هي في أمره لعبده. الله - بالطبع - تربطه مع باقي الكائنات صـلة أيضـاً، بيد أن صـلته بالحيوانات مثلاً هي في أنه يخلقها ويرزقها. أما نحن فعبيد، وعلاقة الله بنا محورُها "الطاعة والمعصية والأمر". إذن لا ينبغي أن نكتفي، إذا ما طرقنا بابه جلّ وعلا، بالكلام في الرزق! فحينما نطيل الكلام في الرزق تصـبح علاقتنا بالله وكأنها علاقة الحيوانات به!
- إذا وقفنا على باب الله تبارك وتعالى فلنتحدث أكثر ما نتحدث عن أصل رباطنا. وما هو محور الرباط بين العبد والمولى؟ هو في أن يأمر المولى ويمتثل العبد. والعبد بالطبع عاجز عن هذا عادةً! فهذا القرآن الكريم يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِه» (آل عمران/102)؛ أي احرصـــوا على امتثال أوامر الله تعالى.

إذا أمر المولى وتوانى العبد فُتح باب حوار الحب

- يأمرنا الله أنْ: "حاذروا!" لكننا مهما حاذَرنا أفلتَت بعض أوامره منا دون امتثال. ولهذا بالذات تتبلور العقدة في قصـــة العبد والمولى حيث يجد الطرفان - ضـــمن علاقة حبهما هذه - ذريعة للحوار وتجاذب أطراف حديث الحب! فيقول العبد: "إلهي، عفوُك!" ويجيب المولى: "لا أعفو عنك!" أو يقول: "ســأعفو عنك هذه المرة، لكن لا تكررها ثانية...". ما معناه أن العبد والمولى يتناجيان باستمرار حول موضوع الخطيئة؛ وهذا هو ســـر العلاقة بين العبد والمولى لمخلوق مثل الإنسان!

- علاقة الكائنات الحية الأخرى مع الله لا تخرج عن قضـــية الرزق، في حين أن أساس علاقة الإنسان بربه هو الطاعة

والمعصـية. فهناك علاقة اسـمُها علاقة العبد بمولاه، أحلى خطاب من جانب المولى فيها هو "إصــدار الأوامر"، وأجمل كلام من جـانـب العبـد فيهـا هو "قولـه ســمعـاً وطـاعـة، واعتذاره". فإن لم نفهم هذه العلاقة لم نستوعب روعة هذا الاعتذار وجمال الحديث حول معصية أمر الله.

انظر إلى الله كمولى لعبد، لا كخـالق لحيوان! أمرُ الله لعبده هو عين مبـادلتـه الحب

- ما هو أجمل ما يمكن أن يخاطب الله به عبده؟ هو أن يأمره، ويرهبه بالعذاب، ويرغّبه بالثواب... لأن الله مولى... انظر إلى الله من موضـع المولى بالنسـبة لعبد، لا من موضـع الخالق بالنسـبة لحيوان! فلنسـأل الله أن يذيقنا حلاوة علاقة العبد بالمولى.
- الله عز وجل، وهو الأشـد عشـقاً لنبيه(ص)، يوجّه له الأوامر أكثر من غيره. نحن غير لائقين بهذا القرب الشـديد من الله كي نتلقى منه كل هذه الأوامر! لقد أوجب الله صـلاة الليل على رسـوله(ص)! في حين أنه(ص) كان سـيداوم عليها بنفسـه حتى وإن لم يوجبها ربُّه عليه! فلماذا أوجَبَها الله عليـه يـا ترى؟ ذلـك أن توجيـه الله الأوامر لعبـده هو عين مبادلته الحب، إذ كان بإمكان الله أن لا يبالي به.

الجميـل من المولى "توجيـه الأوامر"، والجميـل من العبـد "الطـاعـة والاستغفار"!

- «الجميل من الأسـد الانقضـاض ومن الغزال الفرار» (شـعر) فمن كـل موجود هنـاك فعـل جميـل؛ فـالجميـل من المولى توجيه الأوامر، ومن العبد الطاعة والتوبة والاستغفار. فعندما يتوب العبد يكون قد اسـتقر لتوّه في محلّه المخصـص له، وأدرك لتوّه هذا الرباط بين العبد وربه.
- فالمولى إن لم يأمر ليس هو بمولى أصـلاً! بل سـيكون كخالق الحيوان يعطيه رزقه وحسـب! والعبد - من ناحية أخرى - إن لم يعصِ فسـيكون ملاكاً! وكأنه إذا أذنب العبد

فرح المولى بعض الشـــيء؛ لأنه يتوقع أن ينقلب العبد إليه ويأخذ بالاعتذار منه فتتكوّن هذه العلاقة. بمعنى أن العبد يكون قد بلغ العقدة الرئيسة في قصة علاقته بمولاه.

- قيل للإمام الباقر(ع): إننا ما إن نكون عندك وفي مجلســك «حَتَّى تَرِقَّ قُلُوبُنَا وَتَسْلُوَ أَنْفُسُنَا عَنِ الدُّنْيَا وَيَهُونَ عَلَيْنَا مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ... ثُمَّ نَخْرُجُ مِنْ عِنْدِكَ فَإِذَا صِرْنَا مَعَ النَّاسِ وَالتُّجَّارِ أَحْبَبْنَا الدُّنْيَا» شـيئاً فشـيئاً وسـاءَت حالُنا وارتكبنا الخطايا! بدايةً قدّم الإمام(ع) توضيحاً إلى أن قال كما رُوي: «لَوْلا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ فَتَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقاً حَتَّى يُذْنِبُوا ثُمَّ يَسْتَغْفِرُوا اللهَ فَيَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ» (الكافي/ ج2/ ص424)؛ أي إن لم تكونوا من الذين يرتكبون المعاصي ثم يستغفرون الله كان الله سيخلق مثل هؤلاء كي يذنبوا، ثم يسألوا الله المغفرة فيغفر لهم.
- بل أساساً ما أصبح الله مولى إلا ليعفو! فهو تعالى يأمر، لكننا نعجز عن امتثال جميع أوامره على أحسن وجه، ولذا لا بد أن نعتذر له، وهو تعالى يعفو عنا. هذه هي العقدة الرئيسة لقصة العبد والمولى.
- ثم يقول الباقر(ع) (ما مضمونه): إن المؤمن يُبتلى بالفتن والامتحانات، فتزلّ قدمه، ثم يتوب: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُفَتَّنٌ تَوَّابٌ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (البقرة/222)» (نفس المصدر السابق).

العقدة الرئيسة في علاقة العبد بمولاه هي "توجيه الأمر من المولى" و"استغفار العبد"/ الله يحب استغفار عباده

- لا تيأس كل اليأس من ارتكابك الخطيئة بين حين وآخر! لا تدع القنوط يتسلل إليك إثر بضع معاصٍ، بل ادخُل حيّز العلاقة بين العبد والمولى الآخذة بالتبلور، والتي يُعَدّ الاستغفار – بالمناسبة – عُقدتها الرئيسة. كان آية الله بهجت(ره) يقول: "أصل الدعاء هو الاستغفار، لكن الناس أكثر ما تدعو لأمور أخرى لا تتطلب الكثير من الدعاء!" وقال

بعض كبار العلماء: "مشـــاكلك إنما تُحل بالصـــلاة في أول وقتها، لذا ركّز ساعة الدعاء على الاستغفار".

- المُـدرِكون لجمـال العلاقـة بين العبـد والمولى لا يحبون المعصـية، بل يبغضـونها، لكنهم مولعون بالاسـتغفار.. إنهم يسـتغفرون حتى من دون معصـية.. وإن الله يحب اسـتغفار عبده، بل حتى أكثر من عبادته أحياناً! لذا ليس ثمة وليّ من أولياء الله يعرض بين يدي ربه مقدار طاعتِه له، لعِلمه بأن الله لا يعجبه هذا.
- إن لكل علاقة عُقَداً، وإن عُقَد قصـــة علاقة الحب بين العبد والمولى هي موضـــوع الطـاعـة والمعصـــيـة.. الترغيـب والترهيب.. أمرُ الله عبدَه واســـتغفار العبد ربَّه. ولهذا ترى القرآن مشـحوناً بمفاهيم الطاعة والمعصـية.. ولهذا السـبب ترى أوليـاء الله في منـاجـاتهم لا يفتـأون يـذكرون النـار ولا يملّون الاستغفار.

ما هي عُقدة العلاقات الأرضية؟

- ما هي عُقدة العلاقات الأرضـــية؟ وما هي عُقدة العلاقة بين الطفل وأمه؟ وما هي عُقدة علاقة الزوجة بزوجها؟ لـدى تفحّصـــك لمضـــامين أغاني الحب ترى أنهم يتخيلون علاقة حب ثم يبكون عند عُقَدها؛ كأن يقال: "لم تكن وفياً معي، ها أنا أموت كمَداً..!".
- من عُقَـد علاقـات الحـب هـذه الـدلال. «بين العـاشــــق والمعشــــوق الفرق كبير... إذا تـدلّـل المعشــــوق فـأَظهِر احتياجك إليه (شــــعر)». قد يســــتعير العرفاء في الأدب العرفاني من أنماط الحب الأرضـــية هذه. نســـأل الله أن لا تعلق أرواحنا بعُقَد مثل هذه العلاقات؛ ففي الحديث أن مَن لا يحب الله أو ذكره (أي مَن لم تتبلور علاقة العبد والمولى فيه) يعاقبه الله بابتلائه بحب أرضــي: «سَــأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عَنِ الْعِشْـــقِ قَالَ: قُلُوبٌ خَلَتْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ حُبَّ غَيْرِهِ» (أمالي الصدوق/ ص668).

العلاقة بين العبد والمولى إنما تتبلور في "توجيه الأمر من المولى" و"طاعة العبد". فمن أراد هضـــم مفهوم العبودية والاقتراب من هدف الخلقة، فإن عليه دوماً أن يقابل أوامر الله "بالســـمع والطاعة"! ويرضـــخ باســـتمرار لأمر الله وينفّذه ليتبيّن أنه عبدٌ لهذا المولى.

لماذا علينا الاعتذار من الله إذا أذنبنا؟

- لماذا يَعُدّ الله تعالى الخطأ الذي يرتكبه الإنســـان "معصـــية" ويجعل له عقاباً؟ لِمَ يســـمّي الله خطأنا "ذنباً"، ولماذا يتعيّن علينا، إذا أخطأنا وألحَقنا بأنفسنا نحن ضرراً، التوجّه إلى الله والاعتذار منه؟ "إنني أضرَرتُ بنفسـي أنا، فلِمَ علَيَّ الاعتذار من الله؟ لماذا يَدخل الله بنفسه في هذه القضية؟
- لِمَ علينا الاعتذار إلى الله إذا أجرَمنا؟ لأنّ الله تعالى قد أمرَنا بفعل الحسنات التي لا بد من فعلها، كما نهانا عن السيئات التي تضـــرّ بنا. وبما أن الحال هي على هذا النحو فإنني ســـأواجه أمرين إذا أذنبت: الأول هو الآثار الســـيئة التي يتركها هذا الذنب عليَّ أنا، والثاني هو الاعتذار الذي عليّ تقديمه لله عز وجل.

لماذا يشعر الكثيرون بأن الدين يفرض عليهم إملاءاته؟

- إن علينا أن ندرك هذه المسـألة بعمق، فإن لم أسـتوعبها أنا تمـامـاً فلا ينفع أن تُقنعني بـالتوحيـد والمعـاد وعـدل الله عز وجل، ولا يجدي أن تقنعني بالنبوة والإمامة أيضاً؛ لأن تديّني لم يصـــبح حقيقياً بعد! وحتى لو آمنتُ بهذا كله فســـأقول: "لقد تواطأ الله ونبيه عليَّ ليؤذياني!" فأنا أرى الله يصـــدر الأوامر والنبيّ يبلغني إيـاهـا، وإن لم أمتثـل لأمرِ الله فـإنـه ســـيُدخلني جهنّم، وهذا فرضٌ للإملاءات بامتياز!! من هنا يشعر الكثيرون بأن الدين يفرض عليهم إملاءاته!
- مشـــكلة الإنســـان – المعاصـــر على الأقل - ليســـت في أنه: أيوجد في العالم إله أم لا؟ فأكثر سـكان الأرض يُقرّون بوجود

الله. ليس هذا فحسب، بل ويحبّونه، وقد يناجونه أيضاً! بل وليست مشكلة البشر في أنه هل جاء أنبياء أو لا؟ وإن الذين رفضوا الدين ووقفوا بوجه الأنبياء كانوا – في الحقيقة – مذنبين؛ بذنب الكفر.. بذنب الشرك!

مشكلة الإنسان "الذنب" وليس قبول أصول العقائد من توحيد ونبوة ومعاد!

- مشكلة الإنسان ليست في أصل وجود الله تعالى، وأصل النبوة، وأصل المعاد – من الناحيتين الفكرية والعقائدية – بل مشكلته هي مع "الذنوب"، ولا بد من أن يستوعب أنه: لماذا سُمِّي خطأ الإنسان "ذنباً" ولماذا يُعاقَب عليه بالنار؟! هذه هي معضلة البشرية.
- إنك إن تركت الناس وشأنها لقبلَت بأمور كثيرة، كوجود الله على سبيل المثال. ولو تأمّلَت قليلاً لآمنَت أيضاً بالمعاد، وصدّقَت أن حياتنا لا تُختتَم بالدنيا.
- كما وليست مشكلة الإنسان في قبول أفضلية أنبياء الله وأوليائه على باقي البشر. أي: لو لم يكن موضوع الذنب والثواب مطروحاً ثم قلتَ لأحدهم: "بعض الناس أفضل منك" فسيُقرّ بذلك في أغلب الظن ولا يتضايق، وإنّه إن أقرّ بهذا فقد أقرّ بالأنبياء والأئمة أيضاً.

مشكلة معارضي الأنبياء كانت أيضاً "الذنب"؛ فحينما لا تنصاع "لأمر الله ورسوله" فهذا ذنب!

- مشكلة الإنسان هي قضية القرآن الجوهرية ذاتها؛ وهي: "لماذا تُذنب؟" فالإنسان، إلى ما قبل هذه المرحلة، لا اعتراض لديه عادةً؛ فهو يعترف أنه "أخطأ"، وعليه تدارك خطئه، وأنْ يحاول أن لا يكرّره، وأنّ خطأه يُلحق به الضرر.
- المشكلة تبدأ حينما يلصق الله عز وجل بخطأ الإنسان هذا عنوان "الذنب"! ولذا فإنه حينما يأتي نبي ويرسم لهذا الإنسان خطوط المعصية والثواب فإنه يثور ضد هذا النبي، بل وقد يذهب إلى إنزال الله من عرش ربوبيته أيضاً! فإن

قلت له: "ثمة إله ليس في دينه ذنب وثواب" فسوف لا تكون له مع هذا الأخير مشكلة!

- يقول تعالى في قرآنه الكريم: كلما جاءهم رسول بأمر من الله لا تهواه أنفسهم فإما أن يقتلوه وإما أن يكذّبوه: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُون» (المائدة/70). على أنهم كانوا يذعنون حقاً بأن هذا الرسول لا يكذب، لكن بما أنهم لم يكونوا راغبين في اتّباع "أمره" فقد كانوا يقتلونه أو يكذّبونه. مشكلتهم مع النبي كانت في أنه يأمرهم وينهاهم نيابةً عن الله سبحانه وأنهم إن لم ينصاعوا إليه عُدَّ عدم انصياعهم هذا "ذنباً"!

محل نزاع البشر هو "الأمر بالطاعة وعدم المعصية" وليس قبول أفضلية أولياء الله

- محل نزاع البشر لم يكن حتى القبول بأفضلية أولياء الله، بل كان الذنب! ألم يكن رسول الله(ص) قبل أن يُبعث بالنبوة رجلاً صالحاً؟ بلى. ألم يكن أفضل شبّان مكة؟ بلى. ألم يكن الناس مُقرّين بأنه(ص) أفضل منهم جميعاً؟ بلى كانوا مُقرّين. لكن الويل من تلك اللحظة التي يصبح فيها هذا النبي هو الناهي عن الذنب، والآمر بالثواب، والمعيِّن لحدود الطاعة والمعصية! من هذه النقطة تحديداً يبدأ النزاع!
- وليس موضع النزاع أن البشر لا يُقرّون بخطئهم! بل إنهم غالباً ما يذعنون بأن أخطاءهم تُلحِق بهم هُم الأذى، بل إنك لتجد أكثرهم يسأل الله أنْ: "إلهي، تعال أنت وأصلح خطئي!"

قولي: "ليس لي دين" معناه أني لا أريد أن أعترف بوجود الذنب!

- حول أي شيء يدور النزاع بين التديّن وعدم التديّن؟ حينما تسأل أحدهم: "هل أنت متديّن أم لا؟" ويجيبك: "كلا، لستُ متديناً" فما سبب جوابه هذا؟ عادةً مشكلة شخص كهذا ليست الاعتقاد بالله وبالنبي وما إلى ذلك! فعندما يقول: "أنا لستُ متديّناً" فهو يعني: "لا أريد أن أُقرّ بوجود

شـيء اسـمه الذنب.. دعني وشـأني!" ومن ناحية أخرى، فإن المتديّن هو الذي يُقِرّ بأن بعض الأفعال هي "معاصٍ". كما أن مناجاة أهل البيت(ع) هي الأخرى تقوم على أنه: "إلهي عفوك، لقد أجرَمتُ!"

حتى مشاكل البشر العقائدية، "كالشرك"، يضعها الله في خانة "الذنوب"!

- النزاع في القرآن الكريم أيضاً يدور حول الذنب وعدمه. بل إن الله – أسـاسـاً - يضـع المشـاكل العقائدية للبشـر في خانة "الذنوب" أيضاً؛ فالشـرك، حسـب المنطق الإلهي مثلاً، ذنب عظيم لا يُغتفَر! فإذا اسـتثنينا الشـرك الذي هو بمعنى عدم الإخلاص، فإن كل شـرك عقائدي، وكل إنكار لحقائق العالم، وكل رفض للعقائد يسـمّيه الله "ذنباً"!
- نحن نعي أن بعض الخطـايا هي ذنوب؛ فـالجميع يـدرك أن إنزال الظلم بالمظلوم، مثلاً، ذنب ويقبّحُه أيضـاً. لكن ثمة أمور لا نـدرك مـا هو الـداعي لكونهـا ذنوبـاً؛ مثـل بعض الاعوجاجات العقائدية (كالشرك والكفر).

قضية الدين الأولى ليست هي الأخلاق والمعتقدات، بل محورها "الذنوب"

- كما قد تقدم فإن قضية الدين الأولى ليسـت هي المعتقدات أيضـاً، بل الكلام يدور حول الذنب، وفيما إذا كان البشـر يُقرّ بهذا أو لا. كما أن قضية الدين الرئيسـة ليسـت هي الأخلاق أيضـاً، بل إن محورها هو الذنب! فلو أزَحتَ موضـوع الذنب والثواب جـانبـاً وقلـتَ: "الخلُق الفلاني سـيّئ" وافقـك الكثيرون. معظم الأفلام أيضـاً تُظهِر الأخلاق الحسـنـة والقبيحة. وإن أرادوك أن تقول: "هذه الشـخصـية شـخصـية سـيئة" أبرَزوا فيها بضـع أخلاقيات سـيئة. لكن لا أحد يصـبح متديّناً بهذه المواضيع الأخلاقية!
- الجميع يوافقـك الرأي إذا قلـت: "أَنْ يبـذل المرء ويعطي فهو شـيء حسَـن من الناحية الخلُقية"، لكن ما إن تقول: "عدم دفع المرء خُمسَ مالـه وزكـاتـه هو ذنـب وهو يجعـل لقمتـه حراماً" حتى يندلع النزاع!

- والجميع يذعن بأن الســخاء وإعانة الفقراء أمر حسَــن، وأن البخل بذيء أخلاقياً لكن ما إن يُؤَطَّر خلُق السخاء هذا بإطار شــرعي فيقال: "يتوجّب أن تدفع خُمس مالك وإلا حرُمَت لقمتُك!" حتى يقوم النزاع من أنه: "ما هذا الإكراه من الدين للإنسان؟!"

لم يكن للمعارضين مشكلة مع أخلاق الأنبياء، بل كان النزاع حول احترام حدود الله التي يضعها الأنبياء(ع)

- ما المشــكلة التي كانت للناس مع الأنبياء؟ لِمَ كانوا يقتلونهم؟ لم تكن للناس مع الأنبياء مشــكلة في البُعد الأخلاقي، بل كان النزاع حول احترام حدود الله وما يشــرّعه الأنبياء من الحلال والحرام.
- حتى نحن طلبة الدين يُقال لنا أحياناً: "هلُمّ وكن صــالحاً.. تكلّم عن الصــلاح، لا عن الدين!" وصــاحب العِمَّة الذي لا يتحدث إلا في الأخلاق والعقائد يحبه الجميع، لكن ما إن يخوض في حدود الله حتى تنطلق الآراء المعاكسة ضدّه!
- نزاع الناس الجوهري مع أنبياء الله كان على خلفية أن كلام الأنبياء لم يكن أخلاقياً محضاً. بل – أســاســاً - لو أراد أنبياء الله الخوض في الأخلاق فقط لما لزم أن يصــبحوا أنبياء! فلقمان الحكيم كان يتكلم كلاماً أخلاقياً غاية في الروعة ولم يكن يُثار حوله نزاع ومعارضة.

حول ماذا كان النزاع الأساسي للدين مع مؤيديه ومعارضيه؟

- حول ماذا كان النزاع الأســاســي للدين مع مناوئيه، بل مع جمهوره، بل وحتى مع المتدينين؟ كان نزاعه معهم حول الحدود التي يضــعها الله تحت عنوان الذنب والطاعة.. تحت عنوان أوامره ونواهيه! من هنا يندلع الصراع؛ بدءاً من الصراع الداخلي ووصــولاً إلى الصــراع الخارجي. هذه هي العقدة (نقطة الإثارة والصــراع) الأســاســية للقرآن ولحياة البشــر. وحتى أولياء الله فإنهم حينما يســكبون الدموع عند أعتاب ربهم فإن حديثهم يدور دوماً حول هذا الموضوع.

- بـل لقـد جعـل الله تعـالى علاقتـه بعبـاده حول محور هـذه العقدة، وهو أنه: "هل أذنبتَ؟ هل أطعتَ؟ هل عَصَيت؟" ولا يقف الأمر عند الطاعة والمعصـية فقط، بل تُسـتأنف القصـة من جديد إذا أطعتَ فيقول لك: "إن أطعتَني فأخلِص لي في طاعتك.. فلا بد أن أقبل أنا بهذه الطاعة!" فالله يريد أن تدور علاقته بعبده في هذا الفلَك!
- حينما خطب رسـول الله(ص) معرّفاً بشـهر رمضـان المبارك قام أمير المؤمنين(ع) فقال كما في الخبر: «يَا رَسُـولَ اللهِ، مَا أَفْضَلُ الأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ(ص): يَا أَبَا الْحَسَن، أَفْضَـلُ الأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّـهْرِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ» (أمالي الصدوق/ ص95).

هل نحن مُقرّون كل الإقرار بموضـوع الذنب من الناحية القلبية (لا الاعتقادية فقط)؟

- هل نحن مُقرّون بموضـوع الذنب والثواب من حيث الاعتقاد؟ أجل، لا بد أن نكون مُقرّين به لنكون هنا السـاعة! لكن أنُقرّ به كل الإقرار حتى من الناحية القلبية أم لا؟ هذا ما علينا أن نشـتغل عليه. فإن اشـتغَلنا عليه فإننا سـنفرح في حياتنا لقضـيةٍ، وهي عدم ارتكاب المعاصـي! كما رُوي عن أمير المؤمنين(ع): «كُلُّ يَوْمٍ لا يُعْصَـى اللهُ فِيـهِ فَهُوَ يَوْمُ عِيـد» (نهج البلاغـة/ الحكمة428). فهل نحن هكذا حقاً؟ هل نُقرّ نحن بهذا؟
- نسـأل الله تعالى أن يقنعنا بقضـية الذنب. فإنّ من يصـل إلى قناعة حقيقية بخصوص الذنب فسـيكون الكفّ عن المعصية بالنسبة له من الأهمية ما يجعله يضطرب إذا اقتربَت منه.

إننا لم نُخلق لنكون صالحين وناجحين في حياتنا، بل خُلِقنا لإقامة علاقة بالله

- إننا لم نأتِ إلى هذه الدنيا لنكون صـالحين! بل ولم نُخلق لنجتنب ارتكاب الأخطاء أيضـاً! فالإنسـان لا يقتنع بهذا. كما أننا لم نُخلق لنكون ناجحين في حياتنا. فما إن تبلغ نجاحاً ما حتى ترى أنه ليس شيئاً، ويبدأ صدرك بالانقباض تدريجياً.

فلماذا تُســـجَّل أعلى نســـبة كآبة بين الطلاب المقبولين باختبار الثانوية العامة؟ لأن المرء ما إن يصـــيب نجاحاً حتى يقول في ذات نفسه: "ثم ماذا؟!"

- ما من نجاح أو كمال تصـله في هذه الدنيا حتى يغمر الحزنُ قلبك، اللهم إلا إذا أفسدت روحك وخدعت نفسك! فإن كنت إنســاناً ســليماً فســينقبض صـدرك ويجتاحك الحزن مع أي نجاح تبلغُه في الدنيا؛ ذلك أننا أصـــلاً لم نُخلق لهذه الأمور ولا نقتنع بأي منها.
- إننا لم نُخلق لنكون صـــلحاء، فلنحاذر من أن يدُلّونا على العنوان الخطأ! نحن إنما خُلقنا للاتصال بالله تعالى!

علاقة العبد والمولى تتبلور في "الأمر والطاعة"

- علاقتنا بالله عز وجل هي علاقة العبد بمولاه، وعلاقة العبد بالمولى إنما تتبلور في "الأمر" و"الطاعة"، ولا غير!
- إننا لم نُخلق لنصبح صالحين، بل خُلِقنا لنقيم علاقة بمولانا.. خُلِقنا من أجل تحقق شـــيء اســـمه "العبودية"! ولا يتحقق هذا بحضور درس في العقائد وإدراك "أنني عبد وهو مولى"، بـل من خلال التمرين.. تمرين طـاعـة أمر المولى! قـل: "إلهي، سأظل أطيع أوامرك حتى أذوق طعم العبودية!"

"للتمرّن على العبودية" علينا الاستمرار في قبول أوامر الله وتنفيذها

- من أجل أن نســـتوعب ذهنياً مســـألة العبودية ونقترب من هدف الخلقة فإن علينا الاســـتمرار بالرضـــوخ لأوامر الله وتنفيذها. فمن أراد اســـتيعاب مفهوم العبودية فلا بد أن يقابل أمر الله دوماً بالقول: "ســـمعاً وطاعة!".. عليه أن ينفّذ أوامره عز وجـل على نحو موصـــول ليُعلَم أنـه عبـدُ هـذا المولى! كمـا يتوجّـب عليـه الوقوف بوجـه كـل من يحـاول التســلط عليه. شــخصٌ كهذا لا ينفك يهتف "الموت لأمريكا" ليتضح أنه يأبى أن يكون عبداً للطاغوت.
- فالذي يكون عبداً لله لا يســعه أن يُقرّ بســلطة مســتعمري العـالم.. العبوديـة لله تنفي العبوديـة لغيره؛ وهي لهـذا

تسـتبطن في ذاتها الثورية أيضـاً. فلماذا قُمنا بالثورة؟ لأنه لا يمكننا أن نكون عبيداً لغير الله!.. الآخرون يريدون استعبادنا.. وعلينـا التمرّس على عـدم الرقّ للطـاغوت، والتمرّن على العبودية لله!

لماذا يلتذ العبد بتلقي أوامر المولى ونواهيه؟

- حينما يقوى حِسّ العبودية في الإنسـان يسـعى الأخير دوماً لاسـتغفار مولاه والاعتذار منه، وهذا من جملة الأعراض الذاتية لحس العبودية؛ فالعبد سـيشـعر دوماً بالتقصـير أمام مولاه.
- أهم مـا يود العبـد تلقّيـه من مولاه هو "الأمر والنهي"، وهو يلتذ لتلقيه أمر مولاه ونهيه، إذ سـيشـعر أن مولاه يعدّه آدميّاً. فالعبد إن لم يتلَقَّ هذا من ربه سـيتضـايق قائلاً: "إلهي، ألم تعُد تعتبر لي حساباً؟!"

ابدأ "بتنفيذ الأوامر" وسيدبّ حس العبودية في وجودك

- العُقدة الرئيسـة في الدين هي الذنب والثواب. فماذا نصـنع لكي نسـتوعب هذه المسـألة؟ لقد أعلن الله تعالى لائحة المعاصـي، كما أصـدر قائمة بالطاعات والمسـتحبات والمكروهات أيضـاً. فاشـرَع "بتنفيذ الأوامر" وسـيدب حس العبودية في وجودك.
- هل شـاهدت بعضـهم يتصـرف كالمتسـوّل ويمد يد المسـألة أينما ذهب؟ هذا فعل قبيح للغاية. البعض الآخر يتسـوّل ويسـتعطي على باب الله عز وجل. والاسـتجداء على باب الله وإن كـان في غـايـة الروعـة لكننا نُفسِـده؛ بمعنى أن البعض لا يبغي إذا طرق باب الله سـوى أن ينال شـيئاً ومن ثم يرحل! والله يسـخر من أمثال هؤلاء في قرآنه الكريم من أنهم إذا ضـربهم وسـط البحر إعصـار أخلصـوا الدعاء أن: "إلهي، نجني!" لكن ما إن يطأوا بَرّ الأمان يُشـركوا! أمثال هؤلاء لا يبحثون عن العبوديـة: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا

اللهَ مُخْلِصِـــينَ لَـهُ الـدِّينَ فَلَمَّـا نَجَّـاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (العنكبوت/65).

- ماذا نصنع لكي ينشأ في قلوبنا الشيء الذي خُلقنا لأجله، وهو العبودية والاتصال بالله؟ فإن نَشَأَ هذا في قلوبنا توجّهنا إلى الله سائلين إياه: "إلهي، ما هو الذنب؟ ما الذي نهيتَ عنه؟" أي إننا سنتوق إلى تلقي الأوامر والنواهي من الله تعالى. وعندها سنسعَد إذا تلَوا علينا أحكام الدين، وسنُسَر إذا أتينا بالواجبات.. ستتلفَّت أعيننا بحثاً عن مواقف الواجب والحرام.. ثم ستُفتح باب الاستغفار، إلى درجة أنك ستخصص كل أوقات فراغك للاستغفار وتلتذ لذلك.
- يقول إمامنا السجاد(ع) في "دعاء أبي حمزة الثمالي": «يَا مَوْلايَ بِذِكْرِكَ عَاشَ قَلْبِي» (إقبال الأعمال/ ج1/ ص73). فبماذا يخاطب أولياء الله لدى ذكر ربهم وهم يلتذون بذكره كل هذه اللذة؟ أكثر دعائهم "الاستغفار": "إلهي، اعفُ عني.." وهم يلتذون بهذا كل لذة! لا تظن أنهم يتألّمون! ولا يذهب بك التصوُّر إلى أنه: "ما أصعب هذا الدين! إنّ على المرء أن لا ينفَكّ يعتذر!" كلا.. فأولياء الله يستغفرون حتى من دون معصية! إنهم يستغفرون مع الطاعة أيضاً قائلين: "إلهي، لم أستطع تنفيذ أمرك كما ينبغي، فاعفُ عني!" وكأنه لا حاجة لهم إذا مَثَلوا بين يدي ربهم سوى الاستغفار والاعتذار!

لقد فرض الله الواجب والحرام ليرى "أتحب أن تكون عبده أم لا؟"

- روي عن الإمام الصادق(ع) قوله: «إِنَّ اللهَ بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْفَرَائِضَ لَمْ يَفْرِضْ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْكُمْ بَلْ بِرَحْمَةٍ مِنْه» (تحف العقول/ ص485)؛ أي إن الله إنما يُنَشّئ عبده من خلال فَرضِه الواجب والحرام، وإنك لا تقنع ولا تتزن بأقل من "التعبّد" له عز وجل!
- وفي تتمة الرواية: «لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَلِيَبْتَلِيَ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ لِتُسَابِقُوا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ» (المصدر السابق)؛ فالله إنما أوجب ذلك علينا ليتّضح ما في

أعماقنا! وماذا ينبغي أن يكون في أعماقنا؟ ما ينبغي أن يكون في أعماقنا هو: "أتحب أن تكون عبداً لله أم لا؟ هل وقفتَ على إنسانيتك وحقيقتك أو لا؟ هل اكتشفتَ هذا الفراغ الكبير فيك أو لا؟.. أيّ فراغ؟ فراغ أنه: "أريد ربّاً يوجّه إلَيّ الأوامر"، وليس أن تكتشف بأن "هناك ربّاً!" فمن المعلوم أن هناك رباً!.. وإنك لا تنمو وتتكامل إن علمتَ أن هناك ربّاً! بل عليك أن تصل إلى مرحلة أنه: "أُحبّ أن أكون عبداً، وأن يوجّه مولاي لي الأوامر!"

- الله إنّما يوجّه إليك الأوامر ليرى ما يضمره قلبُك؟ فإن تملّصتَ من أوامره اتضح أنك لم تصبح بعدُ عبداً، أو لا تريد أن تصير عبداً!

عندما تولَع في أمر مولاك ونهيه ستحب أن تعتذر منه دوماً

- إذا بلغتَ يوماً ما مرحلةَ أن تقول: "إلهي، يلذ لي أن تأمرني وتنهاني!" فهذا يعني أنك تحب أن يرسم لك الله حدود الذنب. أتعلم إلى أين ستصل بهذا؟ إنك ستصل إلى حيث تحب أن تطرق باب ربك دوماً قائلاً: "إلهي، أستميحك عذرا!.. لقد عجزتُ عن تنفيذ أوامرك بدقة.. لكن استمر أنت في توجيه الأوامر لي!"
- إن باستطاعة كل من أحب رؤية مغازلة الله له أن يراها في لحظة خاصة؛ وهي أن يقف على أعتاب ربه مخاطباً إياه: "إلهي، أرجو المعذرة... أعتذر إذ لم أنجز طاعاتي على نحو صحيح... العفو إذ أجرمتُ..." فالله نفسه يقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِين» (البقرة/222).

لماذا يحتاج التديّن إلى كل هذا القَدر من الدعوة والتبيين؟/ علامَ يُتّخَذ الدين هُزواً ويُستهزأ به كل هذا الاستهزاء؟

- لماذا يحتاج التديّن إلى كل هذا القدر من الدعوة، والتبيين، والتعليم، والتفهيم؟ أيقود الدين إلى اعوجاج في الفهم وسوءٍ في التفسير مما يحتّم علينا دوماً إزالة هذا الاعوجاج؟ هل الدين عَصِيّ على التقبّل وإنّ علينا مضاعفة

الدعوة إليه ونشر تعاليمه ليصبح متقبَّلاً؟ هل التديّن شديد المرارة وإننا نسعى – عبر التبليغ والتبيين – إلى جعله حلواً وعذباً؟ لماذا يتطلب تبليغ الدين وتعليمه كل هذه الجهود؟ لِمَ يتحتّم علينا إنفاق كل هذا الوقت لنقتنع بالتديّن؟

- من ناحية أخرى، لماذا يُتّخَذ الدين – أكثر من أي مقولة أخرى – هُزواً ويُستهزَأ به في المجتمعات البشرية؟ وهو الأمر القائم منذ الأزل والذي أشار إليه القرآن الكريم مراراً وتكراراً. لماذا الهجوم على التديّن شرس إلى حد بعيد؟ ما الذي يدعو البعض إذا سمع كلاماً دينيّاً إلى السخرية منه بكل بساطة، بل وقد يتّهم المتدينين بأنهم جَهَلة لا عقل لهم؟

الدين بحاجة إلى بيان لأنه عميق الغور/ العقول الضحلة لا تفهم الدين فتسخر منه

- الجواب على السؤالَين أعلاه واحد وهو أن احتياج الدين إلى كل هذا التبليغ والتبيين يعود إلى أن الدين عميق الأغوار، لا يأخذ بنظر الاعتبار حاضر الإنسان فحسب، بل مستقبله أيضاً. فالإنسان مخلوق خالد يرمي بطرفه إلى ما لا نهاية، وهو لا يرى أغلب حاجاته المستورة، أما الدين فيراها، ولهذا تراه يطرح خطاباً لا يدركه الإنسان، بل وقد يسخر منه أيضاً.
- إن تعاليم الدين عميقة ومعقدة إلى أبعد الحدود وقد تبدو للسطحيّين مثيرة للسخرية؛ ذلك أن العقول الضحلة الصغيرة التي لا تبصر إلا الظواهر لا تدرك تعاليم الدين، وهي لذلك قد تراها غير عقلائية، بل وتعتبرها مضرّة بالبشر! فقد ينبري مثلاً بعض الجُهّال قائلين عن الصوم: "الامتناع عن شرب الماء 12 ساعة يضرّ بالبدن!" في حين تقول جماعة من الأطباء الأجانب بعد سنوات من البحث والدراسة: "لقد أجرينا دراسة على الموضوع فوجدنا العكس؛ وهو أن الصوم مفيد للبدن أيما فائدة ومن الخطأ تماماً القول: إن الامتناع عن شرب الماء 12 ساعة يضرّ بالبدن!"

الإنسان مخلوق عميق الأغوار له احتياجات خفية معقدة ولهذا فإن الدين عميق الغور أيضاً

- تعاليم الدين إنما صُمّمَت للإنسان، وبما أن الإنسان مخلوق ذو أغوار عميقة جداً وله احتياجات معقدة خفية فحينما يأتي الدين محاولاً تلبية هذه الاحتياجات فإنه لا يُدرَك بسهولة، ومن هنا يتعيّن على المرء التأمّل في الدين طويلاً لإقناع نفسه به.
- البعض، مع الأسف، يعرض الدين بشكل يترك انطباعاً بأنه شيء سطحي وبسيط جداً! في حين أن الإنسان بحاجة إلى جهد كبير ليستوعب الدين بعمق ويقتنع به حق الاقتناع. فالدين أمرٌ ينُمّ عن ذكاء كبير، ولذا ترى الأذكياء متدينين.. وسيأتي يوم على المجتمع البشري يقول فيه الناس إذا رأوا متديّناً: "ما أذكاه من إنسان!" وإذا شاهدوا غير متديّن: "أيّ جاهل هذا!" هذا الأمر غير متعارف في ثقافتنا الحالية على الإطلاق، في حين أنه منطق القرآن إذ يقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُون» (البقرة/13)؛ فالذين لا يؤمنون ينعتون المؤمنين "بالسفاهة والجهل!" فيرد الله عليهم: "إنهم هم السفهاء والجهال. كما يقول عز من قائل في موضع آخر: لا يرغب عن هذا الدين إلا الجاهل: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه» (البقرة/130).
- لقد فشلنا إلى الآن في إيصال المجتمع إلى قناعة بأنه: "بما أن الدين عميق الأغوار فقد يظل منعزلاً؛ شأن العاقل الذي يعيش وسط السفهاء، إذا يظل - عادةً - وحيداً لا يعي الناس ما يقول، بل ويسخرون منه!"

لماذا ينبغي لمن يريد ممارسة الدين أن يفهم الدين بعمق؟

- لماذا ينبغي لمن يريد ممارسة الدين أن يفهم الدين بعمق؟ السـبب هو أن خطاب الدين خطاب عميق وهو يتعارض مع بعض احتياجات الإنسان السطحية والابتدائية. فإن أراد الإنسان الاقتناع بقضية التديّن فسيكون بحاجة إلى جهد فكري عميق. إذن الدين – أولاً – يلبي احتياجات الإنسان العميقة، فإن لم تلمس هذا النمط من احتياجاتك لم تشعر بالحاجة إلى الدين. والدين – ثانياً – قد يجابه بعض احتياجاتك السطحية قائلاً: "تخلَّ عن احتياجك هذا فهو ليس مُهمّاً في الوقت الحاضر"، لكنك لا تتخلّى عن هذه الاحتياجات، فيبدأ الصراع.
- لهذا بالذات نحن بحاجة - إذا أردنا أن نتديّن - إلى فهم عميق للدين وإلا فسوف لا نقتنع به. وكل إنسان هو بحاجة إلى مثل هذا الفهم العميق للدين؛ فلا تتصورَنّ أن بالإمكان تحويل الدين إلى طائفة من القضايا الثقافية (كتقاليد النوروز مثلاً) لعلاج هذه المعضلة إلى الأبد! فمشكلة الدين هذه لا تُحَلّ (بهذه الطريقة) على الإطلاق؛ لأن على كل فرد أن يصل إلى هذه القناعة.

على كل إنسان ليكون متديّناً أن يبلُغ هذه القناعة بمعزل عن غيره

- لا يمكن للدين أن يتحول إلى ثقافة. نعم من الممكن لأجزاء من الدين أن تتحول إلى عادات؛ كارتداء الثياب السود في شهر محرم، ...إلخ، غير أن ذلك القسم من الدين الذي لا يتحول في الغالب إلى ثقافة، والذي يتعيّن فيه على كل شخص أن يقرّر على انفراد كيف يتديّن، هو قسم الطاعة والمعصية.
- الكثير من أنماط السلوك إذا تحولت إلى ثقافة مارسها الجميع، أما الدين فليس هو كذلك. من هنا فإنه يتعين على كل من يحب أن يكون ذا دين أن يُوصل نفسَه إلى هذه القناعة بمعزل عن الآخرين. على سبيل المثال: فائدة الترفيه عن النفس والاستفادة من الطبيعة أيام النوروز (الربيع) معلومة وملموسة للناس كافة، ولذا ترى الجميع

يســـتفيد من الطبيعة في هذه الأيام وليس ثمة حاجة إلى المبالغة في توضيح هذه الفائدة للناس وإقناعهم بها.

- يضـعك الدين كل عام أمام ظاهرة اســمها الصــيام وشــهر رمضان المبارك. ولشـهر رمضان – أولاً – أثر عميق، لكن من المتعذّر علينا إدراك طبيعة هذا الأثر بســـهولة كي نحب الصـــيام! ثانياً: حين يقال: "تخَلَّ عن احتياجك الســـطحي الابتدائي هذا – وهو الأكل والشـــرب – لفترة معيّنة!" فإن كل إنســان يرغب في الامتناع عن الأكل والشـرب سـيدخل في صـــراع وهو، لهـذا، بحـاجـة إلى فهم عميق ليقتنع بالصـيام. من هنا فإن الصـيام لا يتحول بهذه البسـاطة إلى ثقافة، وهو ليس مما يقبله الجميع ويمارســـه عن طيب خـاطر؛ أي إنـه ليس كتقليـد "النوروز" الـذي يقبلـه الكـل ويمارسـه بكل سـهولة.

الدين لا هو مر ولا صــعب، لكنه عميق!/ عليك أن تُقنع نفسـك بعُمقِ الدين كي تسهُل عليك ممارسته

- لماذا يتحتم علينا إنفاق كل هذا الوقت لنقتنع بالتديّن؟ هل التديّن شـديد المرارة وإننا نسـعى – عبر التبليغ والتبيين – إلى جعله حلواً وعـذباً؟ الـدين لا هو مر ولا صـــعب؛ لكنـه عميق! فالدين ليس أمراً شـاقاً لا يمارسـه إلا جماعة خاصة أو نمط معيّن من الناس.
- فلا يســـعنا القول بأن الدين صـــعب، بل هو ســـهل، لكنه عميق! وإنك حينما تدرك الشـــيء العميق يصـــبح ســـهلاً عليك. وعلى من أراد التديّن أن يقنع نفسَـــه بعمق الدين هذا كي يســهل عليه ممارســته. ومن هنا فإن فهم الدين، بالمعنى الحقيقي للكلمة، يحتاج إلى جهد.

لماذا إقناع الإنسان بترك المعصية صعب؟

- عندما نتحدث عن "فهم الدين" فإن أغلب التعاليم الدينية المُعطاة في المدرسة والجامعة غير مقصودة هنا! بل مرادنا من فهم الدين هو "اقتناع الإنســان بأن الفعل الفلاني ذنب

ولا يجوز إتيانه!" وإنّ إقناع الإنســـان بهذا أمرٌ صــعب أيضـــاً لســـببين: الأول هو أن الإقلاع عن الـذنـب يرتبط بـاحتيـاج عميق من احتياجاتك وأنت لا تدرك احتياجك العميق هذا بسهولة. والثاني هو أن عليك، من أجل الكف عن المعصية، أن تقف بوجه احتياج ســـطحي من احتياجاتك ليس من الســـهل عليك غض الطرف عنه، اللهمّ إلا أن تدرك تماماً ما الحكاية لتكون حاضراً للإقلاع عن الذنب.

- "لماذا لا يجوز لي ارتكاب هذه المعصـــية؟" إقناع الإنســـان بترك معصية أمر صعب؛ لأنها قضية عميقة. إذن الدين ليس صعباً، لكنّ العمق الذي فيه يجعل إقناع المرء بالتديّن والكف عن الذنب شــاق. فإن أدركنا هذا العمق فســيســهل علينا التديّن، بل وســـيكون جذاباً أيضـــاً. ولقد أُطلق في الآيات والأحاديث على "الفهم العميق للدين" مصـــطلح "الفقه"، ففقهُك للشـيء هو "فهمُك العميق له"، وليس مجرد علمك به واطلاعك عليه! فالفقه ليس علماً سطحياً، وهو لا يتأتّى بالإخبار، بل هو معرفةُ الطبقات الباطنية للحقيقة التي لا تبدو بشكل ظاهر.

محور الفهم العميق للدين هو "اقتناعي بالكف عن الذنب"

- روي عن الإمام الصـــادق(ع) أنه قال: «لا يَسْـــتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خِصَـــالٌ ثَلَاثٌ: الْفِقْهُ فِي الدِّينِ، وَحُسْـنُ التَّقْدِيرِ فِي الْمَعِيشَـةِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الرَّزَايَا» (تحف العقول/ ص324)؛ أي أولاً: أن يمتلك فهماً عميقاً للدين، وثانياً: أن يتمتع بحســـن التدبير وكســـب المال والعيش عيشـــاً جيداً (أي إنّ هذا يمثل ثلث الطريق إلى كمال الإيمان)، وثالثاً: أن يصبر عند الشدائد.
- أنْ يزوّدوك بلائحة بالمعاصـي وأخرى بالحسـنات، فهذا ليس فَهْماً عميقاً للدين!... أن تتعلّم الرســالة العملية فحســـب، فهذا فَهمٌ ســـطحي للدين!... أما الفهم العميق للدين فمحوره هو "أن أقتنع بأن لا أُذنب". واللافت هو أن معظم الآيات القرآنية تصـــب في هذا الوادي؛ وهو إقناعنا بعدم

المعصـــية! فالآيات التي تتحدث عن الأحكام الدينية لا تزيد عن مائة آية، في حين أن ما يزيد على ستة آلاف آية قرآنية هدفها إقناعنا بالتديّن!

- روي عن الإمام الباقر(ع) قوله: «لَوْ أُتِيتُ بِشَــابٍّ مِنْ شَــبَابِ الشِّــيعَةِ لا يَتَفَقَّهُ لأَدَّبْتُهُ» (المحاســن/ ج1/ ص228). وفي رواية أخرى: «لأَوْجَعْتُه» عوضــاً عن «لأَدَّبْتُه»؛ أي لضــربته وعاقبته حتى أُوجِعَه!
- لماذا ينبغي لكل شـــاب أن يتفقه في الدين؟ لأن على كل شاب أن يقتنع على حِدَة بأنه: "لماذا لا يجوز لي أن أُذنب؟" ولمّا كانت هذه المسألة معقدة فإن على الشاب أن يتحول إلى عنصــر متعمق ليقتنع بهذا. فمهما أتيتَ النفسَ الأمّارة بالدليل أفلتَت منه متذرّعة بذريعة، لذا لا بد أن تكرّر عليها الدليل تلو الدليل وتحاصـرها حتى تسـتسـلم وترضـخ. فإن على كل امرئ أن يقوم بجهد فقهي لكي يقتنع بأنه: "لماذا لا يجوز لي أن أذنب؟ بل – أسـاسـاً - لماذا أصدر الله الأوامر وجعلَ الذنب والثواب؟"

قولنا: "على الشـــاب أن يتفقّه في الدين بعمق" يعني أن يفهم بعمق: "لِمَ لا يجوز لي أن أذنب؟"

- قولنا: "على الشــاب أن يتفقّه في الدين بعمق" لا يعني أن يُزوّدوه بطبقة ســـطحية من المعلومات الدينية أو بمعلومات دينية ســـطحية ليحفظها!" كلا.. بل عليه أن يفهم الدين بعمق، والمصـداق الأفضـل والأهم لفهم الدين بعمق هو أن يفهم بشـكل عميق "لِمَ لا يجوز لي أن أُذنب؟" فإن لم يدرك هذا كان كل ما يدركه فرعياً!
- وإن كان جوابه على ســؤال: "لِمَ لا يجوز لي أن أُذنب؟" هو: "لأن الله أمرني بهذا وإن لم أمتثل فإن مصــيري نار جهنم!" فهذا ليس فهماً عميقاً! ولا أحد يقتنع بهذا الكلام ببسـاطة! وإنِ اقتنعَ به أحد فسـأشـك باقتناعه وأقول: "يوماً ما سـيفرّ هذا الشخص من التديّن!"

- الذي يُقنع نفســه بالتدين وترك المعصــية دونما تفقّه وعبر بضـع أدلة سـطحية وحسـب فلا بد أنه يعاني من مشـكلة، مع أنه قد لا يدرك هو هذا. فقد يكون تأثّر بالمحيط! وشخص كهذا ســيســقط أثناء الغربلات الإلهية! كأن يضــع الله في طريقه شـخصاً سـيّئ التديّن (شـخصاً ذا ظاهر ديني) فينقل له انطباعاً ســيّئاً عن التديّن مما يؤدي إلى خروجه من الدين.
- أول أو أهم موضــوع في عملية الفهم العميق للدين هو: "لماذا لا يجوز لي أن أذنب؟ ولماذا يأمرني الله؟ ولماذا يجعل الجنة والنار جزاءً لأعمالي؟" على أن الإنسان، وبعد اقتناعه بالتقوى والسلوك الديني بعمق، قد يرتكب إثماً، وعلاج هذا الإثم الاســتغفار. أو قد يخاطب ربه أن: "إلهي، إنني مقتنع بهذا الطريق، لكنه شاقّ عليَّ" وسيمدّ الله له يد العون. بل إنه – أســاســاً - ســيعيش حياةً أخرى؛ حياةً تســليته فيها هي عقدة العلاقة بينه وبين مولاه.. وعقدة العلاقة بين العبد والمولى تكمن في قول الأول: "إلهي، اغفر لي إذ عصيتُك هنا..".

للأسف نحن الحوزويين ضعفاء في بيان الالتفاتات الاستراتيجية للدين

- لماذا نحن بحاجة إلى توضيح الدين؟ لأن الدين قضية عميقة وإن على كل إنســان على حدة أن يدرك هذا العمق. ولماذا يســخر البعض من الدين والتديّن؟ لأن الدين عميق وإن من دأب أصحاب العقول الضحلة والنظرة السـطحية أن يتخذوه هزُواً. وللأســف فإن الحوزة العلمية قد تعاملَت بضــعف مع مســألة تبيين وتبليغ هذا الدين - العميق جداً - لتلبية حاجات المجتمع المعاصـر.. إننا معاشـر طلبة العلوم الدينية ضــعفاء!.. نحن عاجزون حتى عن الدفاع بشــكل جيد عن بعض الأحكام البســيطة، وغير قادرين على إيصــال الناس إلى قناعة بهذا الخصوص!
- إننا معشــر طلاب الحوزة نشــكو ضــعفاً في عملية عرض الدين، خصــوصــاً ما يتصــل بأشــد التفاتاته الاســتراتيجية

حساسيةً، وإلا لما شهدنا كل هذا الابتعاد عن الدين! فما زال في المجتمع من يُجيز لنفسه الاستهزاء ببعض أحكام الدين؛ والسبب هو أنه شخص سطحي، وأننا نفتقد العمق في الخطاب.. بكل بساطة!

أيٌّ جزء من الدين يتحتم علينا فهمه بعمق؟

- يروى عن أبي عبد الله الصادق(ع) قوله: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ» (الكافي/ ج1/ ص32). لكن أي جزء من الدين يتحتم علينا التفقّه فيه وفهمه بعمق؟ الجواب: ذلك الجزء الذي يسعى القرآن الكريم لإقناعنا به، وهو: "ضرورة امتلاكنا الدافع للكفّ عن المعصية". فعلى كل فرد منا الاقتناع بهذا بقوة لكي يقف بثبات ويستريح من شر الذنوب.
- إنّ عليَّ أن أقتنع بقوة بأن في المعصية ضرر لي، وأنّ الله قد أحسنَ صنعاً تماماً إذ وجّه إلَيَّ الأوامر، وهدّدني بنار جهنم، وجعل لي الجنة، ولم يُرني آثار بعض الأعمال والذنوب فوراً وذلك ليجعل منّي إنساناً متعمّقاً ومُدقّقاً.. إنساناً يدرك الدين بعمق، كي يحبه بعمق!
- روي عن الإمام الكاظم(ع) أنه قال: «مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي دِينِهِ لَمْ يَرْضَ اللهُ لَهُ عَمَلاً» (تحف العقول/ ص410)؛ إذ سيقول سبحانه: "لِمَ يقوم بهذه الأعمال وهو لا يفقه شيئاً!" أنظروا إلى ديننا المنير للفكر هذا.. كم هو غريب! وإذا بثلة من أشباه التنويريّين وأنصاف المثقفين الجهلة يسخرون منه!

الفقه المطلوب لبيان الدين وتقديمه للبشر أعمق من الفقه المطلوب لاستنباط الأحكام الشرعية

- يصرّح القرآن الكريم بأن من الواجب على البعض التفقه في الدين: «فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون» (التوبة/122)؛ أي إنه من الواجب على جماعة من الناس أن يطلبوا العلم ويصبحوا فقهاء ويرجعوا إلى قومهم، لا لكي

يتحدثوا في مســـائل الأحكام فحســـب، بل لينذروا قومهم ويقنعوهم بالتديّن!

- وكما قد ســـلف فإنّ أهم موضـــوع يتعيّن علينا فهمُه بعمق هو: كيف نقنع أنفســـنا بالتديّن؟ واســـتناداً إلى الآية أعلاه فإنه يتوجب على طائفة من الناس أن يتفقّهوا في الدين كي يتعلموا كيف ينذرون الناس؟ فالســـؤال عن كيفية إنذار الناس، يتطلب فقهاً. لكن ثمة في حوزاتنا العلمية، للأسف، مَن يظن بأن الإنذار ليس بحاجة إلى فهم الدين (أي الفقه)، بل يكفي له مجرّد إجادتك الكلام والبيان! في حين أن هذا الأمر بحاجة إلى علم، وهو لا يحصل بمجرد التفنّن، وحكاية القصص، وإلهاء الناس!
- إنّ الفقه المطلوب لتبليغ الدين وبيانه وعرضـــه على الناس أعمق بكثير من ذلك المطلوب لاستنباط الأحكام الشرعية. فاســـتخراج حكم فقهي من الدين هو علمياً أوطأ مرتبة من إدراك مداليل الكثير من الآيات القرآنية التي بإمكانها إقناع شـــخص بالتدين! يقول ســـماحة آية الله جوادي الآملي في تفســـــير قوله تعالى: «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»: "ما لم يتمكن المرء من إنـذار الآخرين ويعمـل على مـا يحرّض النفوس ويجعلها تكفّ عن المعاصي فهو ليس بفقيه!"

الخطوة الأولى على طريق إقنـاع النـاس بـالتديّن والكف عن المحـارم هي أن تنشـــئ الأفراد على التخطيط، والتدبير، والدقة في الســـلوك، والتنظيم. وما لم يقتنع المرء بأنـه "لا يمكن العيش دون برنـامج وتـدبير" فســـوف لا يؤثر فيـه حتى إقناعه بالله عز وجل؛ فهو غير قادر على طاعة هذا الربّ لأنه يشُـقّ عليه أن يُؤمَر ويُنـهَى!

ما هي الخطوة الأولى لإقناع الناس بالتديّن والكف عن المحارم؟

- ما المراحل التي ينبغي للشـــخص تخطّيها ليُقنع نفســـه بالدين وينخرط في ســـلك المتدينين؟ يمكننا أيضـاً صـياغة السـؤال بالشـكل التالي: كيف السـبيل إلى إقناع امرئ بأن لا يـذنـب؟ ذلـك أن محور التـديّن هو ترك المعصـــيـة! وترك المعصـــية يشـــمل أيضـــاً طاعة الله وامتثال أمره ونهيه، لأن

عدم امتثالك لأوامر الله ونواهيه يُدعى ذنباً؛ ومن هنا فإننا نعتبر الذنب محور التديّن.

- الخطوة الأولى على طريق إقناع الناس بالتديّن والكفّ عن المحارم هي أن تُنشـــئ الأفراد على التخطيط، والتدبير، والدقة في الســلوك، و"التنظيم". ويتشــابه الأشــخاص في مختلف مراحلهم العمرية في أصـل هذا الموضـوع، لكن من الواضـح أن الإنســان في سِـنِيِّ صـباه أكثر تقبُّلاً، ولذا فإننا نشـدد هنا على سنين الطفولة والمراهقة.

علينا أولاً أن نقنع الطفل بأنه: "من المتعذّر إدارة الحياة دون منهج ونظام"

- عليك أن تعمل لدى تربيتك الطفل أثناء أعوامه الســبعة الثانية (فترة الابتدائية) على أن يخرج من حالة الحرية وعدم البرمجة التي كان عليها خلال سنواته السبع الأولى، حيث كان دائم اللهو واللعب، وكان ابن ســاعته؛ يفعل ما يحلو له ويمتنع عما لا يحلو له.
- لكن يتوجّب عليك، في الأعوام الســبعة الثانية من عمر الطفل، أن تُخرجه من هذه الحالة محاولاً إقناعه - في بداية الأمر - بأن "علينا أن نكون مُنَظَّمين، وأن نخطط لنتمكّن من إدارة حياتنا". وأن تجعله يدرك بأن الحياة لا تُدار اعتماداً على الصدفة، بل إننا بحاجة لكسـب كل منفعة إلى التدبير والاجتهاد المنظّم.
- إن من المتعذر العيش دونما تدبيرا! وما لم يقتنع المرء بأنه "لا يمكن العيش دون برنامج وتدبير" فســوف لا يؤثّر فيه حتى إقناعه بالله عز وجل؛ فهو لا يســتطيع أن يطيع هذا الرب، لذا تراه يُنزل الله من عرشه – رويداً رويداً – قائلاً: "من قال أصــلاً أن الله موجود؟!" فشــخص كهذا يشــقّ عليه أن يُؤمَر ويُنهَى، لأنه لا يستطيع العيش بالأوامر.
- الجزء الأول من العيش بالأوامر هو أن "يمنهج المرء حياته"، والجزء الثاني هو "أن تتخذ هذه المنهجة صــبغة الأوامر". فالذي لم يصــبح من الذين يحيون حياة مُمَنهجة وكان دائماً

مخلوقاً انفعالياً يحرَّض على القيام بهذا الفعل أو ذاك (فقد يكون فَعَل الكثير لكن بشكل انفعالي) لا يكون متديّناً جيداً.

أول عناصر الأدب هو "السلوك المُمَنهج"

- تكرر في الأحاديث التأكيد على أن الفترة من السابعة حتى الرابعة عشرة من العمر هي فترة تأديب الصبي؛ إذ رُوي عن الإمام الصادق(ع): «دَعِ ابْنَكَ يَلْعَبْ سَبْعَ سِنِينَ وَيُؤَدَّبْ سَبْعَ سِنِين» (من لا يحضره الفقيه/ ج3/ ص492). كما روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «يُرَبَّى الصَّبِيُّ سَبْعاً، وَيُؤَدَّبُ سَبْعاً، وَيُسْتَخْدَمُ سَبْعاً» (من لا يحضره الفقيه/ ج3/ ص493).
- وللأدب بضعة عناصر، أولها التصرف وفق تعليمات ومنهج. فلم تقل الروايات أعلاه إن على الصبي بين السابعة والرابعة عشرة أن يطيع الأوامر فحسب، بل استعملت لفظة "الأدب"، ما يعني "ضرورة التصرّف وفق منهج"، لأن الأدب هو مجموعة التعليمات التي تنظّم سلوك الإنسان؛ فهناك مثلاً آداب تناول الطعام، وآداب إعداد المائدة، وآداب النوم، ..الخ، وكل هذا يعني ضرورة وجود برنامج.
- الجزء الأول من الأدب هو امتلاك برنامج للحياة. ليس هذا فحسب، بل هو التخطيط للعيش والتفتيش عن منهج! فالذي لم يَعتَد إلى الآن العيش بشكل مُمَنهج فلماذا تحدّثه عن الدين أصلاً؟! شخص كهذا حتى لو أصبح مؤمناً فسوف لا يكون متديناً، أو سيكون متديناً بصعوبة، أو سوف
- لا يلتذ بالتديّن، أو سيتديّن عن "نزوة"، أو سيثير غثيان الجميع من التديّن! أساساً إن معظم تعاليم الدين إنما وُضعَت لتُمَنهج لحياتك!

الأدب هو "السلوك المُمَنهج"

- الأدب يعني "السلوك الممنهج". وإنّ توصيتي لبعض الأصدقاء ممن يديرون مدارس ابتدائية كانت: "ارفعوا مستوى الآداب في المدرسة ما استطعتم". فبالتشديد

على "الأدب" تُحَلّ الكثير من المشـاكل وتسـير عجلة الكثير من الأمور إلى الأمام. فياليت باســتطاعتنا تغيير مدارسـنا الابتدائية إلى "دور التأديب"؛ أي إن علينا تنشـئة أطفال مؤدّبين.

- الإنسـان الذي لا يراعي الآداب قد يتبسّـم، أو يتواضـع، أو قد يتكلم كلاماً جميلاً لكن تصـرّفاته هذه انفعالية فتراه يتصـرف في كل آن بطريقة ما؛ كأن يعامل الناس برأفة من منطلق النفاق، أو يوقّر الآخرين خوفاً منهم، أو يبذل جهداً طمعاً في التشـجيع أو كسـب امتياز ما. أما الذي يراعي الآداب فالأمر عنده سـيّان؛ سـواء أُثيب على الجهد الذي قام به أم لا. فبما أنه إنسـان مؤدب عموماً فهو يفعل ما يفعل من منطلق الآداب؛ كـأن يحيّي الآخرين على الـدوام دون أن يقيّمهم "فيما إذا كانوا يسـتحقون التحية أو لا" فهو ليس ماكراً إلى هذه الدرجة! أو أن يأتي بالعمل الصـالح ليس خشـيةً من العقاب.
- فلكل عمل يقوم به المؤدّب ثمة آداب يلتزم بها، و"منهج" يتقيد به دون أن يطيل الوقوف على نتائجه. فلو أنك أدّبتَ ولدك بهذا الأدب فسـيصبح إنسـاناً ذا تقوى أيضاً، وإلا فمن المسـتبعَد أن يكون كذلك؛ لأن التقوى هي هكذا؛ وهي أنك حينما تمتثل أمراً إلهياً فإن الله لا يشجّعك ولا يُثني عليك.

ولدي لا يصلّي.. ماذا أصنع؟ هل علّمتَه الأدب؟!

- البعض يشـكو قائلاً: "ولدي لا يصـلّي.. ماذا أصـنع لأجعله يصـلّي؟" لكن يا هذا، هل علّمتَ ولدك العنصـر الجوهري والحيوي للحياة وهو "الأدب"؟ إذن بأي طريقة أنت تحيا؟! فإنْ كنا نـأكل بلا آداب، ونُحيّي بلا آداب، وننـام بلا آداب، ونسـتيقظ بلا آداب، ونمشـي بلا آداب، ونلبس بلا آداب، ...الخ فلا ينبغي أن نتوقّع من أولادنا أن يُصلّوا!
- أما إذا اسـتطعتَ أن تنشـئ ولدك على الأدب فليس من الصعب على المؤدّب أن يضيف أدباً أو أدبين إلى قائمة آدابه الأخرى. فإنسـان مؤدب كهذا سـيحترم الآداب مع جاره،

وسيراعي طائفة من الآداب في نومه، واستيقاظه، وترتيب حجرته، ..الخ. فإن أضفتَ إليه أدباً آخر، وهو الصلاة، فسوف لا يشق عليه الالتزام به. تقول له: "تأدّب مع ربك!" يقول: "كيف؟" فتجيب: "بأن تقول "الله أكبر" وتبقى ساكناً لثوانٍ، ثم تركع وتسجد... بهذه الصورة!" وهو سيستوعب ذلك وينجزه لأن ذلك ليس صعباً عليه.

- الطفل الذي تثقل عليه الصلاة فإنه يعيش في بيت كأنه لا تراعى فيه الآداب! نعم في هذا البيت رحمة، وفيه غضب، وفيه اعتقاد بالله، وفيه روحانية، ..الخ، لكن ليس فيه أدب!

المدرسة الابتدائية هي مقرّ التأدّب

- لو كنا نُعير الأدبَ أهميةً كبرى لما طالَبْنا بوضع أجهزة تسجيل الحضور والغياب عند أبواب مصانعنا ودوائرنا، فهذه الأجهزة هي بحد ذاتها مَظهَر لعدم الأدب ومؤشّر عليه! لأنها تكشف عن أن هذا الإنسان لم يتربَّ على الآداب وهو لا يدرك أن "أدب العمل هو الحضور في الوقت المحدد!" ولذا فإنهم يلوون ذراعه بهذا الجهاز وبإنقاص راتبه في نهاية الشهر، إذ لولا "هراوة الراتب" المُشهَرة فوق رأسه لما حضر إلى عمله بانتظام!
- المدرسة الابتدائية هي مقرّ التأدّب، هذه من واضحات ديننا. إنها المكان الذي لا يفعل فيه التلميذ ما يحلو له، والذي لا بد لكل تلميذ إذا أراد فِعْل شيء أن يفعله وفق قوانين! والذين يرفعون الآداب من المدارس الابتدائية وكذا السياسيون الذين ينادون بعدم مراعاة الأدب في الأوساط التربوية التعليمية هم مجرمون! ربما يتصورون أن عدم مراعاة الأدب من قبل الطفل في المدرسة يعني سعادته! إنهم يسعون لنسف الأدب ثم يسمّون هذا "مرحاً ونشاطاً!"

الأولوية في المدرسة هي لإشاعة القابلية للتخطيط/ الأدب هو مظهر القابلية للتخطيط

- إن نزاعنا ليس حول الدين، بل نقول: ما من أحد إلا وهو بحاجة في حياته إلى التدبير، فلا بد للتدبير والتخطيط أن يكون جارياً في دم الإنسان. وإنْ أحبَبنا أن يجري التخطيط مجرى الدم في أبنائنا فلا بد أن نُنشئهم مؤدّبين منذ صباهم. ينبغي للطفل في المدرسة أن يتعلّم الأدب، فالأدب مظهرٌ للقابلية للتخطيط للحياة. ولا بد أن تكون الأولوية في المدرسة هي لإشاعة هذه القابلية والإعداد "للعمل وفق برنامج معيّن". فالعمل من دون برنامج ومنهاج هو العمل بانفعالية!
- نعم قد يقوم غير المُراعي للآداب أيضاً بكل ما يقوم به المؤدَّب لكن بشروط: الأول: إنه يقوم بالعمل إذا ما أُرغم عليه أو هُدّد للقيام به! الثاني: يقوم به إذا تم تطميعه بشيء أو ترغيبه وتشجيعه عليه! الثالث: يقوم به إذا كان ثمة معاون أو معلّم يراقبه! إذن الإنسان الذي لا يراعي الآداب يقوم بهذه الأمور أيضاً، لكنه – ولكونه هكذا - يقوم بها استجابةً لأمور معيّنة.
- على المعلمين الموقّرين طوال هذه السنوات السبع (منذ السابعة وحتى الرابعة عشرة) أن يحثّوا الصبيان على التخطيط والبرمجة، لا أن يزوّدوهم باستمرار ببرامج جاهزة. بالطبع، في بداية الأمر حينما يكون الطفل جديداً على المدرسة لا بد أن يزوّدوه هم بالبرامج، لكن يجب أن يبدأوا - شيئاً فشيئاً - بتدريبه على أن يقوم بنفسه بإعداد البرامج وتنفيذها.

الأدب هو عنوان المنهجة في السلوك الاجتماعي/ الآداب الفردية هي عنوان المنهجة في السلوك الفردي

- لماذا يتصرف الكثيرون في هذه المدينة، المُترعة بالإيمان، خلافاً لمقتضى إيمانهم؟ فلربما تجد بين العاصين أيضاً نمطاً

من الإيمان نقف نحن طلبة العلوم الدينية عاجزين أمامه! لكن ما الذي يجعل سوق المعصية رائجةً وسلعة الاستغفار كاسدة؟! السبب هو قول المؤمن في ذات نفسه: "إنني لا أطيق العمل بالطاعة ولا أتحمّل ترك المعصية!" أي إنه عاجز عن تنظيم تصرفاته.

- من أجل إقناع الشخص بعدم ارتكاب الذنب لا بد أن نقنعه أولاً بأنه: "لا يمكن العيش دون برمجة ومَنهَجة!" وعنوان هذه المنهجة في نطاق السلوك الاجتماعي هو "الأدب"، وفي حيّز السلوكيات الفردية هو "الآداب الفردية" واسم هذه المنهجة هو "التنظيم"!
- رُوي أن رجلاً سأل أبا عبد الله الصادق(ع): «بَلَغَنِي أَنَّ الاقْتِصَادَ وَالتَّدْبِيرَ فِي الْمَعِيشَةِ نِصْفُ الْكَسْبِ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ(ع): لا، بَلْ هُوَ الْكَسْبُ كُلُّه» (أمالي الطوسي/ ص670)، ثم يُتمّ(ع) حسب الرواية: «وَمِنَ الدِّينِ التَّدْبِيرُ فِي الْمَعِيشَة» أي إن التدبير والتخطيط في المعيشة جزء من الدين.
- هذه هي ركائز الإقلاع عن الذنب. فالإقلاع عن الذنب ليس كله في أن تضع نار جهنم أمام عينَي المذنب وتقول له مهدداً: "أَقلِع عن هذا الذنب!" فإن مَن تشكّلَت روحُه وسط حياة غير مُمَنهجة وأصبح إنساناً انفعالياً لا برنامج له تراه لا ينهض بغير الترهيب والترغيب! ولا يتحرك إلا بالقوة! من هنا فإن شخصاً عديم التخطيط وعديم الآداب كهذا، لا ينهض لأنه لا يُحسن العيش بشكل مُمَنهج. إنه لا يتزحزح من مكانه خوفاً من نار المستقبل، بل بالقوة والركل! إنك تظن أنه لا يؤمن بنار جهنم، والحال أنه يؤمن بها.. فمشكلته هي شيء آخر.

الذين لا تدبير ولا خطة لهم يعيشون بطريقة "المشاريع"!

- الذين لا تدبير ولا خطة لهم يعيشون بطريقة المشاريع؛ أي إنهم يصبّون كل اهتمامهم لمدة من الزمن على موضوع، ثم يتركونه ليصبّوا كل اهتمامهم لمدة أخرى على موضوع

آخر. فإذا انشـغلوا بعمل ما لم يعودوا يهتمون بوقت الصـلاة، وإذا أكَبّوا على الدراسـة، فلم يعودوا يُصلّون ولا يعملون! وإذا شـــغلَتهم التســـلية فحدّث ولا حرج! في حين أن لكل من هذه الأمور ساعته ووقته الخاص.

- ولقد قسّـــم أئمتنا الأطهار(ع) في بعض أحاديثهم ســـاعات الإنســـان. فقد رُوي عن الإمام موســـى الكاظم(ع) مثلاً ما مضمونه: اجتهدوا في أن تقسموا زمانكم إلى أربعة أقسام؛ فخصّصوا ساعة لمناجاة الله، وأخرى لكسب المعاش، وثالثة للحوار مع الرفاق والإخوان في الدين (تتجاذبون في هذه المعاشـرة أطراف الحديث، وتتناقلون عيوبكم، فتتكاملون، لا أن تتكلموا في التفاهات)،
- وساعة رابعة للَّذّة غير المحرّمة لتفيدوا من هذه الأخيرة في اكتساب الطاقة للساعات الثلاث الأخرى: «اجْتَهِدُوا فِي أَنْ يَكُونَ زَمَانُكُمْ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ: سَاعَةً لِمُنَاجَاةِ اللهِ، وَسَاعَةً لأَمْرِ الْمَعَاشِ، وَسَاعَةً لِمُعَاشَرَةِ الإِخْوَانِ وَالثِّقَاتِ الَّذِينَ يُعَرِّفُونَكُمْ عُيُوبَكُمْ وَيُخْلِصُـــونَ لَكُمْ فِي الْبَاطِنِ، وَسَـــاعَةً تَخْلُونَ فِيهَا لِلَذَّاتِكُمْ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ وَبِهَذِهِ السَّـــاعَة تَقْدِرُونَ عَلَى الثَّلَاثِ سَاعَات» (تحف العقول/ ص409).

ألا يُقلّل التنظيم والتخطيط من لذّة الإنسان؟

- ألا يعمـل التخطيط والتنظيم في الحيـاة على تقليـل لـذة الإنســـان؟ بلى، إنه يقلل بعض لذاته، لكنه يزيد في لذات أخرى أيضـــاً! كما أنه يحذف بعض آلام المرء ويأتي بآلام جديدة. على أن هذه التي يأتي بها هي آلامٌ تبعث على نشـــاط عظيم؛ كالألم الذي كان يقاســـيه أمير المؤمنين(ع) في فراق الله عز وجل؛ أترى أي ألم جميل هو!
- وما هي الآلام التي تحذفها الحياة المنظّمة؟ إنها الآلام التي بسـبب اتساعها وشـموليتها لا يحسـبها أي امرئ سـيئة ولا ينظر إليها أي إنسـان على أنها مرض. وما هي اللذات التي تحذفها؟ إنها تحذف بعض اللذات كلذّة الشـــخص المنصـــاع للأهواء والنزوات، وهو ممـا لا يُعَـدّ لـذة أصـــلاً! فعن أمير

المؤمنين(ع) إن لـذة المتقين في الـدنيـا أعظم من لـذة المترفين فيها: «سَـكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَـلِ مَا سُـكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَـلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ... أَصَـابُوا لَـذَّةَ زُهْـدِ الـدُّنْيَـا فِي دُنْيَـاهُم» (نهج البلاغـة/ الرسالة27).

أيمكن جَنيُ لذّة أكبر بالانصياع للأهواء وعدم التنظيم؟

- إن من الخطأ أن تعتقد "أنك تجني المزيد من اللذة باتباع الأهواء، وأنّ عليك أن تكون غير منظَّم لكي تستمتع!" وإنه لتصوّر خاطئ أن يظن الإنسان أنه سيكسب لذة أكبر إذا فعل كل ما يحلو له دونما تنظيم أو خطة! بالطبع من الممكن الالتذاذ باتباع النزوات وعدم التنظيم، لكنها لذة ضحلة سيحلّ محلها حزن أكبر.
- وهل عدم التنظيم فيه لذة؟ أجل، لكن بالنسبة للإنسان المنظّم! فإن أحبّ الشخص المنظّم في أوقات ما أن يخرج عن تنظيمه فسيلتذ أثناء هذه الساعات المحدودة أيما لذة. على سبيل المثال: عندما يخصص المنظَّمون ساعات من يومهم للمرح والتسلية فإنهم سيستمتعون بهذه اللحظات كل متعة.
- الخطوة الأولى على طريق إقناع الإنسان بالتديّن وترك المعصية هي أن يقتنع بالعيش وفق منهاج خاص. على أن علينا بعد هذا أن نخطو بضع خطوات أخرى حتى نصل إلى الكفّ عن الذنب. اِبدأ في الوقت الحاضر بتنظيم نفسك.. اِشرَع في الكف عن المعاصي من هذه الخطوة الصغيرة.. لا تتوقع أن تغدو عارفاً دفعة واحدة.. وما إن تذنب استحضر قباحة عملك وليأخذك الحياء من الله!

لدى إقناع الناس بترك المعصية لا تتعجّل في طرح موضوع الخوف من الله!

- لدى إقناع الناس بالتدين وترك المعاصي لا تتعجّل في إقحام موضوع الله والقول: "افعل هذا وكُفّ عن ذاك مخافة الله!" ففي هذه الحالة سيتصور هذا المخلوق الانفعالي الذي لا

يراعي الآداب – الذي عاش دهراً خائفاً من هذا وذاك والذي سئم من حياته – أنك تطلب منه الاستمرار في نفس هذه الحياة الانفعالية!

- إنك تقول له: "افعل هذا الفعل خوفاً من الله!" لكنه يفهمك خطأ ولا يعجبه هذا التعبير، فلقد عاش دهراً حياةً كلها خوف.. لم يذق طعم التنظيم أبداً.. كان انفعالياً أينما حَلّ، وهو يحسبك الآن تقول له: "كن انفعالياً أمام الله!" أما الله فيقول: "كلا، لا تكن انفعالياً أمامي، بل كن مُنظَّماً".

لماذا لا يهدي القرآن غير المتقين؟

- يقول الله عز وجل في مستهل كتابه العزيز: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْب...» (البقرة/2-3). لكن لماذا قُدّمَت التقوى هنا على الإيمان؟ المقصود هنا هو التقوى قبل الإيمان! فما المراد من التقوى قبل الإيمان؟ المراد منها الإنسان الحذر.. الإنسان المتأدب.. صاحب المنهج والتنظيم.. فمثل هذا يؤمن بالغيب!
- هذا الكتاب يهدي المتقين ولا يهدي غيرهم.. إنه لا شك فيه ولا مشكلة لكنه لا يملك هداية غير المتقين، والمشكلة ليست من الكتاب نفسه، بل منهم هم! إذن هو لا ينفع غير المتقين! إنه أمرٌ صادر من الله تعالى أن توضَع هذه الآية في مطلع القرآن الكريم بالذات كي لا يدخله من هَبّ ودَبّ!
- الإنسان الحذر، الذي يمارس حياته بشكل صحيح، والذي يعتمد المنهج في حياته هو إنسان يؤمن بالغيب.. وإن أخبرتَه بأن ثمة غيب، فهو لا ينكره. أما الذي لا يعتمد المنهجة في حياته ولا يعيش بشكل منظم فإنه يرفض كل محاولة من الآخرين لجعله منظَّماً. فالإنسان الانفعالي الذي لا منهج له غير مستعد لأن تضبطه ضوابط، سواء أكانت من الله أم من غيره!

إن لم يعمل كادر المدرســة على تنشـئة التلاميذ على التخطيط ومنهجة الحياة وكان تحمّل التلاميذ لتقبّل المنهجة منخفضاً، وحصلوا على شهادة الثانوية دون أن يُتقنوا برمجة حياتهم فهذه المدرســة غير إسـلامية مهما علّموهم فيها من القرآن والحديث والدعاء!.. كونوا على ثقة.

يمكن للمراقبة في سبيل ترك المعصية أن تشكل محور تسلية في حياتنا!

- من أجل أن يقتنع المرء بأصـل التدين، وهو "ترك المعصـية"، لا بـد لـه من اجتيـاز مراحـل ليزداد إيمـانـه بضـــرورة ترك المعصية، ويصبح تركها سـهلاً، بل وتغدو المراقبة المتواصلة في ســبيل الكف عن المعاصــي ممتعة له حتى تمســي هذه المراقبة تسليتَه في حياته.
- فإن أحب شـــخص أن يقتنع بترك الذنب وأن يكون هذا الأمر سـهلاً وممتعاً بالنسـبة له إلى درجة أن يصبح محور تسـليته وأســاس اهتماماته فمن أين عليه البدء؟ وما المراحل التي يتحتم عليه تخطّيها؟

الاقتناع بالحياة المُمَنهجة يمهد لتقبّل التديّن وترك المعصية

- كمـا تَقـدَّم فـإن الخطوة الأولى نحو الاقتنـاع بـالتـدين وترك المعصــية هي أن نُقنع أنفســنا بالحياة المُمَنهجة، فإن من الوجوه الأصـيلة جداً للتدين هو اقتناع الإنسـان بالعيش وفق برنامج ومنهاج، وإنّ القبول بالعيش المُمَنهج يمهّد للاقتناع بالتدين ونبذ الخطيئة.
- حينما تقول لأحدهم: "إياك ونظرة الحرام" عليك أن تنتبـه: إلى مَن توجِّه كلامك هذا؟ إنّ عليك أن توجّهه لشــخص قد وضـــع برنامجاً لنظراته؛ أي إنه على اســتعداد لأن تكون لنظراته خطة ومنهاج! فمن الواضـح أنك إذا خاطبت شـخصـاً لا اســـتعداد له لوضـــع برنامج لنظراته قائلاً: "إياك ونظرة الحرام" فسـيشُـقُّ عليه ذلك، بل وقد يسـخر منك، أو حتى يشـتمُك!
- فالفتاة التي لا تشـاء شـخصـياً وضـعَ برنامج لأي شــيء في حياتها، بما في ذلك زيّها، كيف تريد أن تقنعها "بالحجاب"؟!

فإنك حين تنصحها بالحجاب دون مقدمات، سـيصـعب عليها ذلك وتظنك مصدر إزعاج لها! إذن عليك أن تسـألها أولاً: أَلَكِ برنامج لحياتك؟ وفق أيّ مبادئ وضعتِ برنامجكِ هذا؟

علَيَّ أن أُقنع نفسي بأنه: "هل أريد العيش وفق برنامج؟"

- ما يؤسَـــف له هو أن فهم الناس للدين خاطئ، فهم لا يدركون أنهم إذا أرادوا ترغيب شـــخص بالتديّن فإن عليهم أولاً أن يعلّموه مهارة أن يعيش وفق برنامج، والنتيجة هي أن أغلب المثقفين باتوا يكرهون الدين!
- علينا إقحام قضـية مَنهجة الحياة في أنفســنا، وفي برامجنا التربوية، وفي ثقافتنا على حد ســـواء، وهذه هي الخطوة الأولى على طريق تقبّلنا للدين.
- ينبغي أن نقنع أنفســنا بأنه: "هل أريد أن أصــبح شــخصــاً يعيش وفق برنـامج أم لا؟" ومـا معنى العيش من دون برنامج؟ هو أن يأتي المرء لربما بكل الأعمال الصـالحة، لكن اســـتجابةً لمؤثر خارجي! العيش دون منهاج وخطة يؤدي بالإنســان إلى الملل، ويخفض مســتوى اســتمتاعه بحياته، ويضَئّل روحه وعقله.

التعاليم الدينية كلها هي غالباً وفق برنامج؛ فلها زمان وآداب

- مدى تأكيد الدين على قضـية المنهجة واضـح، فتعاليم الدين كلها هي غالباً وفق برنامج خاص؛ فلها زمان معين، وسـاعة خاصة، ولها أسـلوب، ولها آداب! حتى في المسـائل المالية فـإن على المتـدين أن يخطط تخطيطـاً دقيقـاً؛ فعليـه أن يحســب إيراداته ونفقاته ويجعل لســنته حســاباً. فإن شــئت أن تصبح متديناً تحتّم عليك أن تهيئ لنفسك دفتر حساب!
- إن لم يعمل كادر المدرســـة على تنشـــئة التلاميذ على "التخطيط ومنهَجَـة الحيـاة" وكـان تحمّـل التلاميـذ لتقبّـل المنهجة منخفضــاً، وحصــلوا على شـــهادة الثانوية دون أن يُتقنوا برمجة حياتهم فهذه المدرســـة غير إســـلامية مهما

علّموهم فيها من القرآن والحديث والدعاء!.. كونوا على ثقة.

الشخص الغريب عن التخطيط والمَنهجة لا تتقبّل روحُه التديّن!

- الشخص الذي لم يفلح في برمجة حياته علينا أن نشك في صلاته حتى إذا صلّى! إذ من غير المعلوم أنه وفق أي منطلقات يصلّي؟ فشخص كهذا لم يستطع أن يجعل لروحه نظاماً، ولذا من المحتمل أن يفر يوماً ما من الدين كفرار النابض الحلزوني المضغوط إذا تُرك لحال سبيله؛ ذلك أن روحه لم تتأهب بعد للتدين، وأنه – أساساً – ليس إنساناً منظّماً.. إنه لا يتقبّل منهجة الحياة، بل ويفرّ منها.
- الشخص الذي لا يتقبّل برمجة حياته سوف لا يستمتع باللحظات الذي يقضّيها وفق برنامج. فمثلاً في اليوم الذي يخطط له جيداً وينجز جميع خططه حتى آخرها على أتم وجه، لا يأنس بذلك لكي يقول: "ممتاز! لقد أنجزتُ اليوم كل أعمالي وفق برنامج!" وإن الشخصية الغريبة إلى هذا الحد عن التخطيط والمنهجة والتي لا تجد متعة في برمجة الحياة لا تنفع للتدين! فالدين هو لأهل المنهجة في الحياة.

الخطوة الأولى على طريق مخالفة الهوى هي "منهجة الحياة"

- ارتقاء إيمان الإنسان يتطلب تنقية روحه من الهوى، والهوى – من وجه من الوجوه – هو غياب منهجة الحياة! أي "أن أفعل ما يحلو لي متى شئت"، وإنّ مخالفة الهوى هي أن أعيش حياتي وفق برنامج ومنهاج. هذه هي الخطوة الأولى.
- التمرّس على العيش وفق برنامج يستغرق وقتاً طويلاً بعض الشيء، والفترة من السابعة حتى الرابعة عشرة هي أفضل فترة لتحويل الطفل إلى إنسان يعيش وفق منهاج، وهو إن أصبح هكذا فسيصبح أيضاً ذا تقوى إن شاء الله. وتحوّل الصبي من السابعة حتى الرابعة عشرة إلى شخص مُمَنهج قد عبّرَت عنه الروايات "بالتأدّب".

حسب علم النفس يفتش الطفل منذ السابعة عن أوامر ومنهاج

- واللافت هو أن الصبي ما بين السابعة والرابعة عشرة يحب أن يكون له برنامج، بالطبع إذا كان الولد سليماً وكان قد تلقّى في أعوامه السبعة الأولى القدر الكافي من المحبة وتصرّف على هواه بقدر جيد. فالولد في أعوامه السبعة الأولى، حسب الرواية، سيد؛ أي يصنع ما يطيب له صنعه، وعلى أبويه أن يسمعا له ويُطيعا: «الْوَلَدُ سَيِّدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَعَبْدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَوَزِيرٌ سَبْعَ سِنِين» (وسائل الشيعة/ ج21/ ص476).
- فإن كبرَ الولد في السبعة الأولى على هذا المنوال فسيمَلّ بعدها فِعْلَ كل ما يَلَذّ له ولذا حتى علم النفس يقول: سيبدأ منذ السابعة بالتفتيش عن أوامر ومنهج ينتهجه، وسيطيب له ذلك. بل إنك، في الحقيقة، ستخونه إن لم تزوّده بخطة عمل وتعليمات.
- وإذا سُئل الصبي الذّكَر في هذه المرحلة العمرية عما يحب أن يكون في المستقبل فإنه عادةً ما يختار المِهَن التي فيها نظام وانضباط قائلاً: "أريد أن أكون شرطياً، أو طياراً، ..الخ"؛ أي إنه يفضّل المِهَن التي تُرتدَى فيها بِزّة رسمية، وفيها آداب وتعاليم خاصة.

تقبُّل الإنسان خضوعه لبرنامج ومن ثم "برمجته هو لحياته" ضروري لعملية التربية وبناء الذات

- تقبُّل الإنسان خضوعَه لبرنامج ومن ثم "برمجته هو لحياته" ضروري جداً للعملية التربوية. حتى في قضية بناء الذات فمن أجل أن تنجح فيما بعد في الإقلاع عن المعصية وزيادة محبتك لربك حاول أن تُخضِع حياتَك كلها لمنهاج معيّن، وتُقحم النظام فيها وعندها سترى أن حالك الروحانية قد ارتقت. لا تضجر من النظام... لا تكن منظَّماً طمعاً في التشجيع أو مخافة العقوبة... أو بسبب ضغط جهاز تسجيل الحضور والانصراف أو ضغط العمل. فالذي يدرس من أجل

العلامة الامتحانية هو شخص واقع تحت مؤثر خارجي، وليس شخصاً صاحب منهاج! فهو وإن كان في الظاهر يتصرف وفق برنامج لكنه – في الحقيقة - يدرس بسبب ضغط العلامة والامتحان. وشخص كهذا سيكون عديم الشخصية.. سيكون إنسانا سيئاً.. إنساناً لا دين له! فلا تدرس من أجل الامتحان!

- في الحوزة قديماً لم يكن الامتحان متعارفاً. إنه لعُرف خاطئ أن يُخضع طالب الحوزة لامتحان. ولقد ثبت في علم النفس أن هذا الأسلوب في التربية والتعليم يميت مواهب الإنسان، وهو - من الناحية الدينية - خلاف التقوى تماماً.. التقييم بالعلامات أسلوب خاطئ بالمرة، فلماذا يُنتهَج هذا الأسلوب في الحوزات العلمية؟! من أين تعلمنا هذه الطريقة؟! هل كان أسلافنا يتّبعونها في الحوزة؟!
- يروى عن أميرالمؤمنين(ع) قوله: «أُوصِيكُمَا... بِتَقْوَى اللهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُم» (نهج البلاغة/ الرسالة47)؛ أي لتكونوا منظَّمين من منطلق التقوى. يقول: "التقوى والنظام" وليس: الامتحان والنظام، ولا مدير المدرسة والنظام! فحتى مدير المدرسة ومعاونها لا ينبغي أن يضعوا أنفسهما محل تقوى الطالب ويضبطوا سلوكه بكل هذه الصرامة فيقوم هذا الأخير بانتهاج السلوك الحسَن لا لسبب إلا استجابة لتأثير هذا الضبط!

لا بد لروح طالب الحوزة أن تتقبّل الخضوع للمنهجة وتمنهج هي لنفسها

- المدرسة العلمية (الحوزة) مشيَّدة على التقوى؛ على تقوى مديرِها، وتقوى مدرّسها، وتقوى طالبها! إنها ذات التقوى المشار إليها في خطاب إمامنا الراحل(ره) لطلبة العلوم الدينية: "إذا لم تشتغلوا في طلب العلم يحرُم عليكم الاستمرار في المدرسة!" فإن لم نكترث لهذه التقوى وانصبَّ همُّنا على الامتحان والعلامات لأكَبَّ طالب العلوم الدينية هو الآخر ليلة الامتحان على استظهار كراس

دراسـي ليخوض الامتحان ويحصـد علامة جيدة! وبالمناسـبة فإنه في حالة

- كهذه سـيكون حصـوله على علامة كاملة أشـد خطراً! ذلك أنه حصل على العلامة الكاملة وشخصيته لَمّا تترَبَّ بالشكل الصـحيح! فكيف لنا غداً أن نتدارك الموقف إذا أصـبح هذا الإنسـان العديم التقوى عـالِم دين؟! إنـه لأمر في غـايـة الخطورة!
- خطر منح العلامات في الحوزة العلمية أعظم بكثير من أن لا تمنحها ثم يزعم أحـد الطلبـة أنـه "عـالم!" لا سـيما في الحوزات العلمية حيث من السـهل بمكان اكتشـاف ما إذا كان زعم أحدهم بأنه عالِم صـحيح أم لا؟ كأنْ يناولوه كتاباً ويطلبوا منه تدرسيه فإن لم يستطع يُعلَم بأن ادعاءه زائف.
- لا بد لروح طالب الحوزة أن تتقبّل الخضـوع للمنهجة. ولا بد أن تُمَنهج هي لحياتها.. يجب في جميع شؤون حياتها أن لا تنصـاع لهواها.. وأن لا تقع تحت تأثير الضـغوط الخارجية. لذا على مديري المدرسـة العلمية أن يقيموا علاقة مع طالب الحوزة ويُعِينوه على أن يمنهج هو لحيـاتـه. كمـا عليهم أن يعلّموه أسـلوب التخطيط والمنهجـة. مع الأسـف الحوزة العلمية تفتقد مادة "الإدارة والتخطيط" كدرس عام.

الذي يفتش عن منهاج جيّد لحياته سيعثر حتماً على منهاج الدين

- إذا اقتنع الإنسـان بضرورة أن يكون لحياته منهاج فسـيفتش - لا محالة - عن المنهاج الجيد، بل وسـيجده أيضـاً. لهذا ففي وسـعنا أن نقول: "صـاحب الخطة والمنهجية سـيعثر على منهاج الدين".
- فأنا مثلاً أود أن يكون لحياتي برنامج ولا دخل لي بالدين. لكن لماذا أريد هذا البرنامج؟ لأنه يرفع مسـتوى لـذة الإنسـان، ويزيد صموده في مواجهة المعضلات، ويهبه سعة وجودية، ويمنحه سعة الصدر، ويخفض مستوى معاناته، ولا يجعله يتألم، ويزيد من نجاحه في الحياة.

نفس الخضوع لبرنامج وعملية وضع البرامج ما هو تناسبهما مع الدين؟

- إذا أردتُ أن أعيش وفق برنامج دون أن تكون لي صلة بالدين والله ورسـوله فما الذي سـيجعلني أعثر على الدين؟ نفس الخضوع لبرنامج أو عملية وضع البرامج ما هو تناسـبهما مع الدين؟ تناســبهما معه هو أنك حينما تدخل حيز الحياة المُمَنهجة فستشـرع – شـيئاً فشـيئاً – بوضع خطط طويلة الأمد، واسـتشـراف المسـتقبل، والتخطيط الاسـتراتيجي. فميزة البرنامج هو أنه يستشـرف المسـتقبل؛ فبعد أن ينظر إلى مصـالح الغد، يجتازها إلى ما بعد الغد، ومن ثم يرمي بطَرْفه تدريجياً إلى المسـتقبل الأبعد، فيخطط – مثلاً – للعشر سنوات القادمة.

لماذا يصبح صاحب المنهاج متديناً بشكل تلقائي؟

- الذي لا يستطيع التخطيط والمنهجة للعشر سنوات القادمة من عمره لا يملك أن يخطط ويمنهج ليوم القيامة أيضاً.. وهو لا يكون متديناً حسَن التديُّن! فالذي لا يتمكن من أن يمنهج لسِـنِيِّ شـيخوخته فمن الطبيعي أن لا يدرك أن عليه فعل شيء ليوم القيامة. أيُعقَل لمن لا برنامج له
- للعشـر سـنوات القادمة من حياته أن يخطط ليوم قيامته؟! وهل الذي لا يمنهج لحياته سيخطط لما بعد موته؟!
- الذي يُخضـع نفسَـه لمنهاج فإنه سـيتديّن تلقائياً؛ لأن مثل هذا الإنسان الذي يترعرع على التخطيط والبرمجة لا يبرمج ليومه وغده فحسب! بل سيقول في ذات نفسه ابتداءً: "ما هي خطتي لهذا الأسـبوع؟" ثم يقول: "وما هو برنامجي لهذا الشـهر؟ ثم لهذا العام؟" فإن استـمرَّ على هذا المنوال فسـيصبح متديّناً! فما الذي يطلبه الله ورسـوله منا يا ترى؟ يقولان لنا: "خططوا بأنفسكم ليوم القيامة!"
- ماذا يصـنع التخطيط؟ إنه - من الناحية التربوية - يأخذك تلقائياً باتجاه اسـتشـراف المسـتقبل؛ أي باتجاه التخطيط البعيد المدى. فإن أصـبحتَ من مسـتشـرفي المسـتقبل

والمخططين على المدى البعيد فستمسي – تدريجياً – متديناً وتدنو من ذروة حقيقة الدين! وعندما يتركز تفكيرك على نقطة النهاية (القيامة) فستتحمل آلام الطريق وتتمكن من تجاهل اللذات الضحلة العابرة. فأي نمط من الناس يخاطب الله عز وجل في قرآنه الكريم عندما يتكلم كل هذا الكلام عن المستقبل والقيامة؟ إنه يخاطب أصحاب الألباب الذين يرمون بطَرْفهم إلى المستقبل ويُمَنهجون لحياتهم!

لماذا يحزن صاحب البرنامج إذا "أذنب"؟/ الذنب هو الخطأ الحاصل أثناء تنفيذ البرنامج

- الذي يسير وفق برنامج سيحزن إذا اضطرب برنامجه. فالذي أصبح مبرمجاً لحياته فإنه سيهيّئ بالتخطيط الممهّدات لتنفيذ برنامجه. أتعلم لماذا يحزن الإنسان المبرمج لحياته حينما يذنب؟ لأن الذنب هو خطأ يحصل أثناء تنفيذ البرنامج، وإن الإنسان ليحزن كل الحزن لدى حصول مثل هذا الخطأ أثناء تنفيذ البرنامج الذي وضعه. أما الذي لا برنامج له، والذي يُمضي عمره بشكل عشوائي (دونما حساب) فمن أين له أصلاً أن يفهم معنى التوبة؟! أما الذي أصبح ذا منهاج فإنه ينظر إلى قائمة الفحص خاصته قائلاً: "لقد أفسدتُ اليوم هاتين النقطتين في برنامجي ولم أنفّذهما بشكل صحيح!"
- إذا بدأ المبرمج لحياته في الدخول – شيئاً فشيئاً - إلى وادي الدين فسيكون مُعَدّاً للحزن العميق لأجل شيء اسمه "الذنب". وفي ميسورك الآن أن تبشّر شخصاً كهذا ببشرى سارة جداً بقولك له: "إن لك ربّاً إذا أخطأتَ في تنفيذ برنامجك وتركت فقرة أو فقرتين من قائمة فحصك دون أن تعلّمهما بعلامة، وأتيته ليلاً طارقاً بابه وصارَحتَه بهاتين الفقرتين فسيتداركهما لك...".

إذا كنتَ تحيا وفق منهاج فسيُصلح الله أخطاءك

- إذا كنت تحيا وفق منهاج فإنك ستتحسس وتحزن كثيراً كلما ارتبك برنامجك. وهنا سيقول لك الله، على سبيل المثال: "إنك صاحب برنامج في الحياة.. أَعلَم أنك الآن مستاء جداً لاضطراب برنامجك. تعال وسأصلحه لك.. لا تعذب نفسك كل هذا العذاب! أنا سأصلح الباقي وأتدارك ما فسد..."
- الذي يعيش وفق منهاج سيتدارك خطأه، أما المنصاع لهواه فلا يكترث لأخطائه وزلاته، ويقول في ذات نفسه: "إن أفلحتُ، أفلحتُ وإن لم أُفلح لم أفلح!" فالذي يعيش هكذا دونما أي منهجة وحساب لا يستاء من عدم نجاحاته وزلاته، ولا يعتذر منها.
- الذي يسير وفق خطة ومنهاج لا بد أن يحزن كثيراً إذا تخلّف عن خطته ولم يستوفِها بالكامل بل سيتأرّق من فرط حزنه. لكن الله سيخاطبه قائلاً: "لا تحزن، سأساعدك.. إذهب الآن ونَم، وسأعالج المشكلة وأنت نائم! إنك معي.. إنك تعمل في أحضاني.. إنك لست وحيداً..!"

العقل المخطِّط هو العقل الذي يحدد الأولويات

- فلنسأل الله أن يهبنا عقلاً مخطِّطاً، والعقل المخطِّط هو العقل الذي يحدد الأولويات؛ أي بإمكانه أن يحدد إن كان عليه إنجاز هذا الفعل أولاً أو ذاك؟ فالأعمال الصالحة كثيرة، والنقائص التي يتعيّن على الإنسان رفعَها كثيرة هي الأخرى، والعقل المخطط هو العقل الذي يعلم من أين يبدأ!
- من أجل أن تكون مخطِّطاً وقادراً على تحديد الأولويات فاطلب من الله أن يهبك الحكمة، ويمنحك الفرقان وقدرة التمييز بين الخير والشر، ويعطيك البصيرة وينَمّي عقلك. فليس العقل أن تميز الجيد من الرديء، وليس العقل أن تحدد احتياجاتك، بل العقل هو أن تفهم أنه أيّ احتياجاتك له الأولوية؟ وما العمل الذي عليك إنجازه أولاً؟ العقل هو القدرة على التخطيط والتدبير. "فالتدبير" هو "صَفّ الأمور الواحد تلو

الآخر"؛ أي أن يَعلَم الإنســـان أيُّ الأمور له الأرجحية؟ وأيّ الأعمال الأول، وأيها الثاني؟ على أنه ما كلّ مُطّلع على أحكام الإسلام يكون "مدبّراً" بهذه البساطة.

لقد خلقَنا الله نفعيّين، وإن التدين هو النفعية، لكن أي نفع؟.. القليل أم الكثير؟ لو أردنا أن نضـــع قيداً للأنانية والنفعية كان علينا القول: "طالب بمصـــالحك إكلها... كُن في أعلى درجات النفعيّة... لا تتغاضَ عن ذرّة من مصالحك"

كيف نُقنع أنفسنا بالتديّن؟/ كيف نجعل في أنفسنا المقدرة على التديّن؟

- قد يكون دافع الإنسان للتدين أفضل بكثير من التدين نفسه؛ أي إن نية المرء وحافزه لممارسة السلوك الديني أهم من السلوك ذاته، وإن كان هذا السلوك نفيس في حد ذاته.
- السؤال هو: كيف نُقنع أنفسنا بالتدين؟ ثم إذا أقنعناها، كيف نجعل في أنفســـنا المقدرة على التديّن؟ فالتدين بحاجة إلى مقدرة ومهارة، لا لأنّه صـــعب إلى أبعد الحدود، بل لأن أعمالاً كالســـياقة والســـباحة مثلاً هي الأخرى بحاجة إلى مقدرة ومهارة، لكن ما إن يكتســـب المرء مهارة هذا العمل فإنه لا يصبح سهلاً عليه فحسب، بل وممتعاً له أيضاً.

التديّن لمن اكتسب المهارة والمقدرة ليس غير صعب فحسب، بل وجذاب أيضاً

- التدين بحاجة إلى بعض المهارة؛ فأذهاننا مثلاً لا بد أن تعتاد مجموعةً من الأعمال، وأرواحنا ينبغي أن تتعوّد طائفة من النشـــاطات (كاكتســـاب الدافع)، هذه هي مهارات التدين. فإن كان العمل بحاجة إلى مهارة خاصـــة لإنجازه وكان الشـــخص يفتقد هذه المهارة فســـيصـعب عليه هذا العمل رغم ســـهولته. ودين الله تعالى ســـهل يســـير. لكنه صـعبٌ على مَن؟ إنه صعب على من لا يتقنه ولم يكتسب المهارة اللازمة له.
- عندما نتحدث عن اكتســـاب المقدرة للتدين أو الاقتناع به فلنعلم أن صعوبة التدين هي في اكتساب المهارة من أجله وما إن تُكتســـب هذه المهارة حتى تزول الصـعوبة، وعندها

سيكون التديّن مدعاةً لتسلية المرء؛ شأن السباحة التي إذا تعلمها المرء فسوف لا تزول صعوبتها فحسب، بل ستتحول إلى سبب لتسليته ومتعته.

- اِعلَم أن ما ينطوي عليه التديّن من تسلية يفوق قطعاً سائر التسالي.. كن على يقين بأنه مُسَلٍّ إلى أبعد الحدود! فإن تعلّمتَ مهارة التدين صِرتَ بطل مسلسل عبوديتك وحياتك، وهو مسلسل جذاب جداً وسيشغل فكرك دوماً حتى لتودّ أن لا يتشتت ذهنك هنا وهناك، كما لو كنت تشاهد مسلسلاً تلفزيونياً جذاباً ولا ترغب أن ينصرف فكرك إلى شيء آخر ولذا تراك تُبعد عنك المؤثرات المشتتة للذهن.

"محاسبة النفس" التي يؤكد عليها الدين هي إحدى مهارات مَنهَجَة الحياة

- كما مر فإن الخطوة الأولى من أجل أن نقتنع بالتديّن ونكتسب القدرة عليه هي الاقتناع بأن نعيش حياةً مُمَنهجة وأن نكون قادرين على التخطيط؛ أي أن نكتسب مهارة المَنهَجة لحياتنا. و"محاسبة النفس" التي ورد التأكيد عليها في الدين هي جزء من مهارة منهجة الحياة هذه؛ ذلك أن أحد أقسام المنهجة هو أنهم يجعلون لكل منهاج طريقةً لقياس مقدار النجاح فيه؛ أي إنهم يضعون المعايير قائلين: "إذا طبّقتَ هذا المنهاج بشكل صحيح فلا بد أن تخرج بالنتائج التالية..." ثم يضعون طريقة لتقوم أنت بتقييم ما إذا كنتَ قد طبَّقتَ هذا البرنامج بشكل صحيح أو لا.

أين وردَت كلمة "المنهجة" في الدين؟

- يسأل البعض: "من أين أتيتَ بكلمة "المَنهَجة" وأهميتها في التدين؟!" أقول: ما معنى كلمة "المراقبة" التي تُستعمل في المباحث العرفانية والأخلاقية؟ "التقوى" أساساً تعني المراقبة؛
- فالمعنى الدقيق للفظة "التقوى" ليس الاتقاء، بل إن معناها الجميل والدقيق هو "المراقبة" تحديداً.. كأنْ نقول: "إياك والنار!" "انتبه لعملك!"، "راقب ربك"...

- أتلاحظ كم تكرّرَت لفظة "المراقبة" في مباحثنا العرفاني! فالمراقبة قبل العمل تعني المَنهجة. كأن تقول: "راقب نفسك لئلا تُفرّط بالنجاح الذي حصلتَ عليه اليوم!" ويلزم المرءَ للمراقبة عادةً لائحةُ تدقيق يسجل فيها أفعاله وفقاً لخُطّة معيّنة؛ بالضبط كمساعد الطيار الذي يمسك بلائحة تدقيق لمراقبة كل شيء. وللممرضين لائحة فحص يسجلون فيها وضعية المريض. كما أن لبعض أصحاب الدكاكين ورقة يقيّدون فيها مبيعاتهم.

ما هي الخطوة الثانية للاقتناع بالتدين والإقلاع عن المعصية؟

- كما تقدم فإن الخطوة الأولى هي الاقتناع بمنهجة الحياة، ومن ثم بالطبع "اكتساب القدرة على العيش المُمَنهج" إلى درجة "أن نعتاد العيش وفق برنامج وخطة".
- ولنتحدث الآن عن الخطوة أو المرحلة الثانية للاقتناع بالتدين وترك المعصية. هدفنا هو إقناع أنفسنا بالكف عن الذنوب وتبسيط هذا الأمر لأنفسنا إلى درجة الاستمتاع بتلَهّينا بعملية "المراقبة لاجتناب الذنب" (المراقبة التي تسمى "التقوى").
- كما قد بيّنّا سابقاً فإن أساس التدين هو الكف عن المحارم. وإن مخالفة الأقدمين للأنبياء ومحاربتهم إياهم على أمر الله تعالى كان يدور في الأساس حول الكف عن المعاصي. وإلا فلو اقتصر الأمر على الإيمان بالله عز وجل لكان إبليس قد آمن بالله، ولكان قابيل وجميع قتلة الأنبياء ومعارضيهم قد آمنوا به أيضاً! فجميعهم كانوا، بشكل طبيعي، مؤمنين بالله؛ فهذا قاتل أبي عبد الله الحسين(ع) في عصر يوم عاشوراء يطالب القوم بأن يأخذوا منه رأس الحسين(ع) قبل أن تفوته صلاته! فالمشكلة الكبرى لم تكن الإيمان، بل الدين، ومشكلة الدين هي الكف عن المعاصي.

الخطوة الثانية للاقتناع بالكف عن المعصية هي أن يكون الناس نفعِيّين وأنانيين!

- الخطوة الثانية على طريق الاقتناع بالتديّن والكف عن الذنوب خطوة غريبة جداً، وهي أن يكون الناس نفعيين وأنانيين! فما لم تصبح نفعياً وأنانياً فسوف لا تستطيع ممارسة الدين! لا تبع نفسك... لا تنس نفسك... خُذ مصالحك بعين الاعتبار!
- الخراف ليست مخلوقات أنانية! فهي تشاهد أنهم يقتادونها الواحد تلو الآخر نحو المسلخ لكنها لا تفر ولا تناضل للبقاء أبداً! فالحيوان مخلوق خُلق من أجل الإنسان وهو ليس أنانياً، أما الإنسان فلقد خُلق لنفسه ولا بد أن يريد نفسَه!

هل "الأنانية" سيّئة حقاً؟!

- الأنانية في ثقافتنا "سيئة!" لكن لا وجود لهذا المعنى في النصوص الدينية العربية. فأين الآية القرآنية التي توصينا "باجتناب الأنانية؟!" ولماذا أساساً لا نكون أنانيين؟! فلا وجود في الدين لمعنى "بذل النفس!" أقصى درجات بذل النفس إن بَلَغناها هي "الشهادة"، والله يعبّر عن الشهادة بما يشبه "التجارة"؛ فالشهيد هو الذي يشتري اللهُ نفسَه، وهو نفسُه يجني من هذه التجارة ربحاً: «إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِه» (التوبة/111).
- مع الأسف فإن مفاهيم مثل "الأنانية" "وبذل النفس" في أدبنا لم تُدرَك بشكل صحيح. فالأدب هو الآخر قد يحيد عن مساره ويتعيّن حينها إعادته إليه.

أوَيمكن أن يكون الدين مضراً للإنسان؟

- حول هذا الموضوع سألني شاب ذات مرة قائلاً: "تقول إن على الإنسان أن يكون نفعياً لا أخلاقي النزعة؟ لكن ماذا لو أضَرَّ الدينُ بالإنسان في موضعٍ ما، أوَيتخلّى الأخير حينئذ عن الدين؟!" لكن أوَيمكن أن يكون الدين مضراً للإنسان؟! هذا السؤال يؤشر على أن الكثير من الركائز المعلوماتية لذهن هذا الشاب فاسدة! أوَيأمرك الله يا ترى: "اِعمَل بما يضرُّك وبما ينفع الدين؟" لكن ما هو الدين كي أعمل بما ينفعه؟ الدين من أوله إلى آخره يعمل بما فيه نفع الإنسان نفسه.
- أتدري لماذا يترك الناسُ الدينَ؟ لأنهم لا يريدون أنفسهم!... لأنهم لا يبغون مصالحهم! والحق إن الإنسان الذي لا يريد نفسه ولا يسعى وراء منافعه سيشقى. والإنسان الذي لا يريد منفعته ستكون ربع آيات القرآن الكريم – التي تتحدث عن الجنة والنار - غير ذات جدوى له! فالخوف من النار هو صفة من يريد نفسه ولا يرغب في عذابها، والتوق إلى الجنة هو سجية من يريد نفسه ويحب أن يلتذ ويستقر في أفضل مكان في الجنة.

الذي لا يطالب بمصالحه لا يمكن التحدث إليه عن الدين

- اعمل أنت أوّلاً على تربية طفلك على الأنانية كي أقول له أنا: "هذه هي مصالحك...". فالذي لا يكترث بنَيل منفعة نفسه كيف لي أن أحدّثه عن الدين؟
- علينا أن نربي الطفل بحيث يبدأ هو بالمطالبة بمنافعه بعيدة الأمد. فإن أخبرتَ طفلاً: "بأنك إن لم تدرس ولم تجتَز مراحل العلم العليا وأمضيتَ وقتك باللهو والتفاهات فإنك ستندم بعد عشر سنوات.." فأجابك: "لا يهمني!" فإن مثل هذا الإنسان الذي لا يأبه بمصالحه بعد عشر سنوات سوف لا يكون متديناً، لأن الدين يريدنا أن نحصل على منافع أكثر.
- هل سيتطاول الأناني على مصالح غيره؟

- قد يقول قائل: "الذي ينشـأ أنانياً سـيتطاول على مصـالح غيره لبلوغ مصـالحه." حسـنٌ، علينا توخّي الحذر لمنع حصـول هذا. فكما تحثنا الأحاديث الشـريفة على تأمين مصالح أنفسنا فإنها تطالبنا باحترام مصالح الآخرين؛ إذ يقول أمير المؤمنين(ع): «فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِـكَ وَلا تَظْلِمْ كَمَا لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ» (تحف العقول/ ص74).
- الذي يرى لنفسـه ولمصـالحه قيمة يسـتطيع أن يدرك أن للآخرين مصـالحهم أيضـاً؛ أي إنه سـيعطي الآخرين الحق ويحرص على مصالحهم.
- أوّلاً تربَّ أنتَ أنانياً ونفعيّاً كي أسـتطيع أنا أن أتلو عليك هذا الحديث: «أحبب لغيرك ما تحب لنفسـك!» فالذي لا يطلب لنفسـه المنفعة، بل ويريد لها التعاسـة فمن المؤكد أنه سـيطلب التعاسـة لغيره أيضاً. والذي قد عمل على تحطيم نفسه فإنه يود لو يحطم الآخرون أنفسَهم؛ بالضبط كالمدمن (على المخدرات) الذي انحدر بنفسـه إلى الحضـيض ويريد جرّ الآخرين إلى الإدمان أيضاً.

إذا لم تأخذ منفعة الآخرين في عين الاعتبار خسرتَ!

- إن قلنا لأحدهم: "لا تنظر إلى مصـلحتك فقط، وانظر إلى مصالح الآخرين أيضاً" لم يكن كلامنا صحيحاً ودقيقاً. فالأدق أن نقول: "إن ألحقتَ بأحد ضـرراً عاد الضـرر عليك في النهاية". حتى أنه رُوي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «مَا أَحْسَـنْتُ إِلَى أَحَدٍ» فلما سـمع الناس قوله(ع) رفعوا رؤوسـهم تعجباً من قوله، فتلا(ع) الآية: «إِنْ أَحْسَـنْتُمْ أَحْسَـنْتُمْ لأَنْفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَـأْتُمْ فَلَهَا» (الإسراء/7) (نثر الدر/ ج1/ ص293، وتفسير جوامع الجامع/ ج2/ ص318).
- إن لم تأخذ منفعة الآخرين بعين الاعتبار خسـرت. فنحن إذن بحاجة إلى الاهتمام بمصالح الآخرين أيضاً؛ فعندما تتصدق مثلاً عليك أن تعلم أن صـدقتك تنفعك أنت كذلك، فلا داعي إذن لأن تمُنّ بسـببها! ففي الحديث إن الثري إذا أعطى

أحداً مالاً كان كالحمال الذي ألقى حمله على كاهل غيره. إذن الغني الذي لا يســـاعد الآخرين هو كالحمال الذي ينوء دائماً بحِملِه أينما ذهب ولا يطرحه أرضاً إلى أن يموت! «وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْـــتَقْرَضَــكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَــاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِك» (نهج البلاغة/ الرسالة31).

- فعندما تدفع مالك للفقير فإنك في الواقع تقول له: "إنني غير قادر على حمل هذا المال إلى يوم القيامة أما أنت فتستطيع حمله لي، فهلا أتيتَ لي به إلى هناك؟" فما من أحد باســـتطاعته حمل ماله معه إلى يوم القيامة، إلا أن يدفعه لشخص آخر ليأتيه به! هذا هو منطق ديننا.

لا تتغاض عن منفعتك قيد شعرة وإلا قسا قلبُك بالمقادر ذاته!

- تفحّص أدعية أئمة الهدى(ع) وســـتلاحظ أن أســـلوبها نفعي أكثر منه غرامي! لكن أي نفع؟.. القليل أم الكثير؟ لو أردنا أن نضــــع قيداً للأنانية والنفعية كان علينا القول: "طالب بمصـــالحك كلها... كُن في أعلى درجات النفعيّة... لا تعدِل عن ذرة من مصالحك!"
- طالب بكل ما هو في صالحك في هذا العالم.. لا تتغاضَ عن منفعتك قيد شعرة وإلا قسا قلبُك واسوَدَّ بالمقدار ذاته!
- إنّ من الخطأ أن نتخيل أننا إذا غدونا نفعيين قسَــــت قلوبُنا! بل إن القاســـي القلب هو الذي يتغاضــى عن قســـم من منافعه!
- لا بد لنفعيتنا أن تكون مطلقة. فلقد خلقَنا الله نفعيين، وإن التدين هو النفعية تحديداً.

الدين منهاج لتأمين مصالح الفرد ومصالح الجماعة على حد سواء

- لقد وصلت بنا الأمور - مع الأسـف - إلى أن البعض أخذ يتهم الثوريين – الذين أصـــبحوا ثوريين بســـبب تدينهم – بأن:

"ثوريتكم جعلتكم تتغاضـــون عن مصـــالحكم الوطنية!" في حين أنه لم يصـبح هذا الثوري ثورياً إلا لإبائه التنازل عن ذرة من مصـالحه للأعادي. أما المسـتسـلم فهو على اسـتعداد للتنازل للعدو عن مصالحه، بل وليصبح مطيّتَه أيضاً! فلو كنا متدينين حقاً لأبَينا التغاضـــي عن شـــعرة من مصـــالحنا للأعادي أو التراجع أمامهم.

- الدين يجعل المرء حريصـــاً على منفعته حرصـــاً يجعله يُفني كل من يحاول اســـتلابها. والله عز وجل لا يطلب منا أبداً التنازل عن مصالحنا من أجل ديننا! بل إن الدين – بالمناسبة – هو منهاج لتأمين المصالح؛ سواء مصالح الفرد أو الجماعة.

الحكمة من أوامر الله هي أن لا تتضرّر أنت

- روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا خَلَقَ خَلْقَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى آدَابٍ رَفِيعَةٍ وَأَخْلاقٍ شَـرِيفَةٍ، فَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَـذَلِـكَ إِلاّ بِـأَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَـا لَهُمْ [ما ينفعهم] وَمَا عَلَيْهِمْ [ما يضـرّهم] وَالتَّعْرِيفُ لا يَكُونُ إِلاّ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ» (الاحتجاج/ ج1/ ص207).
- فلماذا يوجّه الله إلينا الأوامر أساساً؟ يوجّهها لأجل مصالحنا. فما الأمر الذي تريد أن يوجَّه إليك إن لم تكن نفعيّ النزعة؟! فإن الحكمة من أوامر الله هي أن لا تتضرّر أنت.

منطق القرآن الكريم هو: الصوم والصدقة والجهاد هي في صالحك!

- منطق القرآن الكريم هو أن صـــومك هو في صـــالحك، إن أدركـتَ ذلـك! «وَأَنْ تَصُـــومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون» (البقرة/184). وفي آية أخرى إنّ تصـــدقك خير لك إن كنت تعلم: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَـرَةٍ وَأَنْ تَصَـدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون» (البقرة/280)؛ ففي التصـــدق منفعة للإنســـان، ولأن الله يريد لك هذه المنفعة فإنه يقول لك: "تصدّق".

- عندما يرى المرء أن باســـتطاعته مســـاعدة مؤمن فلا بد أن يُسَــرّ لذلك ويرغب في هذا الفعل لأن فيه نفعه. هكذا هي قوانين العالم.
- يقول عز من قـائـل في آيـة أخرى: «انْفِرُوا خِفَـافـاً وَثِقَـالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِــكُمْ فِي سَــبيلِ اللهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون» (التوبة/41).
- لاحظ المنطق القرآني.. إنــه يقول: «فَمَنِ اهْتَــدى فَـإِنَّمـا يَهْتَدي لِنَفْســهِ وَمَنْ ضَــلَّ فَإِنَّما يَضِــلُّ عَلَيْها وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيل» (يونس/108)؛ أي: يا أيها النبي، قل للناس إن من اهتدى فقد اهتدى لصالح نفسـه ومن ضلَّ فإنه يضُرّ نفسَـه، وما أنا عليكم بوكيـل ولا حـارس! أي عليكم أن تهتموا أنتم بأنفســـكم! وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم مراراً، وهو قوله: "يا أيها النبي، قل للناس أنني لســـت عليكم بوكيل" فاعتنوا أنتم بمصالح أنفسكم.
- يقول تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَـالِحاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْها» (فُصّلت/46)؛ أي مَن عمل خيراً فعمله لمصلحته، ومن عمل ســوءاً فقد أضـرَّ بنفســه. نعم الجواب على الســؤال: "لماذا هذا الفعل خير لنا ولصالحنا؟" قد يكون معقّداً بعض الشـيء، إلا أن البعيد عن الأنانية والنفعية لا يفهم أصـــلاً هذه الأمور لأنه قد تنازل عن منافعه!

المتجاهر بالفسق يضر بالمجتمع

- لو كانت أدبياتنا الدينية في مجتمعنا ســـليمة لأدركنا أن المتجـاهر بـالفســـق أمـام النـاس يضــرّ – في الحقيقـة - بالمجتمع كله؛ بالضـبط كمن يســتمر بالضـغط على زر منبّه السـيارة محطّماً أعصاب الناس، فلا بد من منع شخص كهذا من هذا الفعل لأنه يؤذي الآخرين. فلو كانت أدبياتنا الدينية سـليمة لاصطدمنا مع كل متجاهر بالفسق بهذه الطريقة.
- المتجاهر بالفســـق لا يملك أن يقول: "لســـتُ على هذه العقيدة!" وهل يُســـمَح لك، يا هذا، بالتصــرف بما يضـــر بالآخرين يا ترى؟! هل الأمر باختيارك أنت؟!

- الدين شيء يصب في مصلحتنا، والمُعلِن لفسقه إنما يضر بالمجتمع كله. فكيف يا ترى يُتصرَّف في باقي أنحاء العالم مع من يُلحق الضرر بالمجتمع كله؟!

الذي يعلن الفسق في المجتمع لا يملك القول: "هذا ما أؤمن به!"

- الذي يتجاهر بالفسق في المجتمع لا يملك أن يقول تبريراً لتصرفه: "هذا ما أؤمن به، والدين مسألة شخصية!" فهو كمَن يهدم جدار داري قائلاً: "إنها مسألة شخصية وذوقية!" أو كمن يسرق مالي قائلاً: "السرقة برأيي ليست عملاً قبيحاً!"
- لماذا نقدم الدين للناس "كاعتقاد محض" كي ينبري بعضهم للقول: "كل امرئ وما يعتقد به!" أجل، كل امرئ وما يعتقد به، لكنك تعلم يا هذا أن عليك الوقوف عند الإشارة الضوئية! إذ ليس من حقك إشاعة الفوضى في المدينة! والذي يتجاوز على الخط السريع السرعة المقررة (120 كم بالساعة مثلاً) لا يحق له الاعتراض على شرطي المرور أنْ: "في اعتقادي أن مَن يتجاوز سرعة 120 لا يستحق التغريم، فأعلى سرعة مُجازة في نظري هي 140!" وهل أمثال هذه الأشياء هي بالرأي والاعتقاد؟! وهل الدين معتقَد شخصي؟! الدين منفعة! أتدري في مصلحة من يصب قولك: "الدين عقيدة شخصية"؟ إنه يصب في مصلحة جميع الفساق!

كثير من المتملصين من الدين، سواء الفارين منه أو حتى المناوئين له، ليسوا أناساً سيئين ولا يصح أن يقال إنهم مرضى، بل إنهم ضحية سوء تفاهم، ولو أزيل سوء التفاهم هذا لفهموا الدين وقبلوه. لذا فإننا بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم".

أيمكن أن يعيش الكل في المجتمع العالمي تحت ظل دولة واحدة ودين واحد؟

- لقد خُلقت في مجتمعنا بل وفي المجتمع العالمي أنماط عميقة وكثيرة جداً من سوء التفاهم استغلها أعداء البشرية

وأعداء الدين لصالحهم. ولو أُزيلَت أنماط سوء التفاهم هذه لرأيتم كيف ستتمكن دولة عالمية واحدة يحكمها دين ومسلك واحد أن تبقى مستقرة أبداً بلا توتر وضغوط، دون أن يلجأ صاحب الزمان(عج) فيها إلى الكثير من أساليب السيطرة على المجتمع وأدوات حفظ نظامه.

- هل من الممكن حقّاً أن يعيش الكل في المجتمع العالمي، بكل ما فيه من تنوع في المذاهب واختلاف في الأذواق وتباين في التاريخ ـــ أن يعيشوا تحت ظل دولة واحدة ودين واحد؟ أجل ممكن، وإن استبعد أحدٌ هذا الآن فذلك بسبب أشكال سوء التفاهم المغروسة في الأذهان، وإلا ففطرة الناس فطرة إلهية: «فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» (الروم/30).
- على سبيل المثال، الكل في العالم يفهم ويُقرّ بأن السرقة بذيئة. فتخيل لو أن الناس فهموا ديناً واحداً وشريعة واحدة أفضل فهم وقبلوهما أحسن قبول ماذا سيحصل؟ عندها سيكون في الميسور أن يكون لنا دين عالمي واحد كميثاق دولي! فحينما يكون الدين على أعلى مستوى من الوضوح، والعقلانية، والجذابية، والمنطقية فلا بد أن يقبل به الجميع، إلى درجة أن يعبّر الله عز وجل عنه: وهل يرفض الدين إلا الجاهل: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» (البقرة/130).

نحن بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم"!

- كثير من المتملصين من الدين، سواء الفارين منه أو حتى المناوئين له، ليسوا أناساً سيّئين ولا يصح أن يقال إنهم مرضى. نعم، قد يكونون ضعفاء نفوس، لكنهم ليسوا مرضى، بل إنهم ضحية سوء تفاهم، ولو أزيل سوء التفاهم هذا لفهموا الدين وقبلوه.
- نحن بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم"؛ ذلك أن سوء التفاهم هذا قد استفحل واتسعت دائرته جداً ولن يتبدّد بالرد على بضع شبهات والإجابة على بعض

التساؤلات. ففي سياق حركة إزالة سوء التفاهم لا بد أن نقول أمام كل نزاع يطرأ: "قد يكون ثمة سوء تفاهم! لعله نزاعٌ حول العنب والكَرْم؛ فكلاكما يتحدث عن العنب لكنكما تستخدمان لفظتين مختلفتين!"

خطابنا الديني الرائج اليوم للتعريف بالدين ليس واضحاً

- خطابنا الديني الرائج للتعريف بالدين ليس خطاباً واضحاً، وهو عاجز عن حل المعضلات أو إزالة الأفكار الخاطئة التي يحملها الكثير من أفراد المجتمع، ولا بد لهذا الخطاب أن يتغير. لا ندّعي أنه: "لا بد من تغيير الدين من الأساس!" بل نقول: "ينبغي تغيير خطابنا الديني كي لا يولّد سوء تفاهم حول الدين".
- عندما لا نطرح الدين بشكل صحيح تطرأ إشكالات؛ كأن لا يكون هذا الدين جذاباً للكثيرين، فيعزفون عنه، بل ويكرهونه أيضاً. بل سينفذ العدو هنا ويبدأ باستغلال الوضع وإضلال الناس.
- لاحظوا كيف يعرّفون التلاميذَ بالدين في المناهج الدراسية؟ إنهم يثبتون وجود الله أولاً ثم يقولون: "يجب أن تطيعوا الله"، ومن ثم يقولون: "إن لم تطيعوا الله فإن مصيركم نار جهنم!" صحيح أن كل عبارة على حدة هي عبارة صائبة لكنك إذا ركّبتها مع بعضها فستكون النتيجة التالي: "لقد أثبتنا أن الله موجود، والآن إن لم تعبد هذا الرب فستذهب إلى النار!" حسنٌ، من الطبيعي أن حالة من سوء التفاهم ستتولد إذا قدّمتَ الدين بهذه الطريقة!

أغلب معارضي الثورة واقعون في سوء تفاهم، وإزالة اختلاف الرأي ممكن

- الكثير من المعاندين، أو المعارضين للثورة الإسلامية، أو الذين حادوا عن خط الإمام الراحل(ره) إذا أصغيتَ لكلامهم اكتشفت أن مأربهم أساساً هو الصواب لكنهم واقعون في لَبس وسوء تفاهم. من هنا فإن إمكانية عودتهم متاحة تماماً، وهناك حقاً إمكانية لإزالة اختلاف الرأي.

- مشكلتنا هي أننا لا نتكلم بالشكل الصحيح ولا نطرح الدين بصورة سليمة، وحركة إزالة سوء التفاهم هدفها اجتذاب معظم الذين عزفوا عن الدين وعن الله وعن الإسلام الأصيل وإعادتهم إلى هذه الجادة.
- لقد قدمنا أكثر من 200 ألف شهيد لنقول: "طيلة تاريخ إيران وخلال أي عهد من عهودها لم يتم الدفاع عن تراب الوطن والمصالح الوطنية كما قد دُوفِع عنها في عهد هذه الثورة!" لكنه، وبسبب سوء التفاهم هذا، ترى البعض اليوم، وتحت شعار "الذود عن المصالح الوطنية"، يهاجم نهج الشهداء! والسبب هو أن مؤيدي هؤلاء الشهداء لا يُحسنون الخطاب إلى حدٍّ ما. بالطبع كلام معظم المتدينين والثوريين ليس خاطئاً، بل وصائب، لكنه يخلق حالة من سوء التفاهم.

لماذا يُنظر في مجتمعنا إلى موضوع "الكف عن الذنب" على أنه موضوع غير جذاب؟

- موضوع بحثنا هو "الكف عن الذنب". وكما تقدم فإن مشكلة الدين الأساسية – مع المتدينين والمجتمع الديني والمجتمع البشري – تدور حول قضية "الكف عن المعاصي"، لا حول مسألة مخالفة الله! والسؤال هنا هو: كيف للناس أن يقتنعوا بأن لا يرتكبوا الذنب؟ الجواب: لا بد أولاً أن يفهموا "ما هو الذنب؟"
- أفراد مجتمعنا عموماً، ومن خلال هذا الخطاب الديني الشائع، لا يدركون تماماً المراد من الذنب! إنهم عموماً لم يتربّوا على ترك المعصية. بل إذا تحدث عالِم دين عن المعاصي ترى الكثيرين يكرهون الإنصات إليه ويفرون منه، لأنهم يرون أنفسهم عاصين فيقولون في ذات أنفسهم: "لا بد أنه يريد الآن موعظتنا بأن: لا تذنبوا!"

الفهم العام للمعصية في مجتمعنا ليس فهماً صحيحاً

- في مجتمعنا – مع الأسف – إذا طُرح موضوع المعصية فُهم على أنه موضوع غير جذاب وأنه مدعاة لفرار الناس من

الدين؛ ذلك أن الدين لم يُقدَّم للناس بشـــكل جيد وهو ما خلق حالة من سوء التفاهم حوله. بل إن بعض السياسيين يهزأون في حملاتهم الانتخـابيـة من "النهي عن المنكر" (النهي عن المعصية) فيفوزون في الانتخابات! أي إن الناس تمنحهم أصـواتها دون أن تجد فيهم كفاءة خاصـة أو قابلية معيّنة!

- لماذا وضــعُ مجتمعنا هكذا؟ لماذا يفوز في الانتخابات مَن يســخر من فريضــة النهي عن المنكر؟ ذلك أن الفهم العام للذنب في مجتمعنا فهم خاطئ ويشـوبه سـوء تفاهم؛ أي إن الأغلبية لا تعلم أن المعصـــية هي حقاً ضـــارة بالفرد والمجتمع، وإن الكف عنها هو في صـــالحنا، وإلا فليســـت القضية أبداً أن معظم أفراد شعبنا سيّئون! فهم في أغلبهم لا يعانون نقصـاً على مســتوى الإيمان والمعرفة. نعم هناك الكثير من الضعف والقوة بين المسـتويات الثقافية المختلفة لكنه يمكن التفاهم مع الكثير منهم.

كيف نتكلم في الدين بما لا يخلق سوء تفاهم؟

- كيف نتكلم في الدين بما لا يخلق ســـوء تفاهم؟ كيف نقيم حالة تربوية دينية بحيث لا يتولد ســـوء تفاهم؟ كما قد أســـلفنا فـإن الخطوة الأولى على طريق الاقتنـاع بترك المعصـية هي أن ينشـأ الإنسـان "صـاحب خطة وبرنامج"، ويؤمن بـأنـه بحـاجـة إلى منهـاج، وأن العيش بلا منهـاج غير ممكن! لا بد أن يمتلك الإنسان القدرة على التخطيط ويقتنع بأن يعيش أكثر حياته وفق برنامج.
- إنك إذا أصـــبحتَ ذا منهاج فســتكون ذا تخطيط طويل الأمد، وإنْ أمســـيت ذا تخطيط طويل الأمد فســـتجعل منك النظرةُ البعيدة الأمد هذه شــخصـاً بعيد النظر. وبعد أن تصـبح بعيد النظر وترى مصـالحك الأبعد فســتغدو رجلاً إلهياً ودينياً! بل في ميســـورنا أن نقول في تعريفنا لأمير المؤمنين(ع) إنه كان رجلاً ذا نظرة بعيدة المدى في تخطيطه لحياته!

- قد تســـأل: "الغربيون أصـــحاب منهاج وتخطيط، فهل هم مقبولون لديك؟" من محاســـن الصـــدف أن مأخذي على الغربيين هو أنهم ليســـوا أهل برمجة وأنهم ضـــعفاء في التخطيط! فلو كـانوا ذوي برنـامج وقمّـةً في التخطيط لمـا احتـاجوا إلى ارتكاب كل هـذه الجرائم والمجـازر في العـالم لكي يصبحوا، ويظلوا أكثر ثراءً! فلأنهم فاشـلون في التخطيط فإنهم لا يجدون بُداً من اللجوء إلى الســلاح وقتل الشــعوب الضـــعيفة. فلماذا يقترفون كل هذه الجرائم؟ لأنهم يفتقرون إلى المنهجة الصـــحيحة وأنهم غير قادرين على دفع عجلة تقدّمهم عبر التخطيط الاقتصــادي المحض. فإن ضــعفهم – بالمناسـبة – هو في افتقارهم إلى المنهجة!

الخطوة الثانية للاقتناع بالتدين هي أن تكون نفعياً!

- كما قد مر في المحاضرات الفائتة فإن الخطوة الأولى لاقتناع الإنســـان بالتدين هي أن يكون مُخطِّطاً في حياته، وإذا قُدِّم الدين إلى الناس بهذه الطريقة يكون قد قُدِّم بشكل صحيح.
- الخطوة الثانية هي أن يكون الإنســـان نفعياً، ويحب نفســـه أيما حب، ويهوى مصالحَه. علينا أن نلقّنه بأن: لا تتغاضَ عن أي منفعة من منافعك؛ بمقدورك أن تســتمتع بعشــر لذات، فلماذا لا تســتمتع بها؟! في اســتطاعتك أن تكتســب هذه القدرات العشـرة، فلماذا لا تكتسـبها؟!

رَبِّ ولدك على عدم القناعة بالقليل/ الإمام الصــادق(ع) يدعو إلى التســابق إلى أعلى درجات الجنة

- الذي يتغاضى عن معظم مصالحه تعيس الحظ! هدفنا هو أن نربي أولادنا على أن لا يتنازلوا عن أي مصـــلحة ولا يقنعوا بالقليل؛ فهذا أهم عندنا من أن يخافوا من الخطر! وهذا أهم لدينا من أن يُقدِم ولدُنا على فعلٍ خشـية أمرٍ آخر!
- إذا رغبت في تربية طفلك أو تهذيب نفسـك فاطمع بالمنافع الكبيرة التي ينبغي أن تصيبها. حتى الخوف من نار جهنم لا يفعل كل هذا الفعل! فعن الإمام الصادق(ع) لشـعيته: كونوا

مرتاحي البال، إذ سنشفع لكم لتخليصكم من النار، فتسابقوا أنتم لبلوغ أعلى الدرجات: «وَاللهِ لا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَتَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَات» (الأمالي للطوسي/ ص296)، و: «لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، كُلُّكُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَتَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَات» (الأمالي للطوسي/ ص722-723).

- إن أردتَ تنشئة شيعي فنشّئه من البداية بحيث إذا قلت له: "إنك تستطيع اجتياز هذه المراتب أيضاً.. إن باستطاعتك امتلاك هذه الأمور كذلك.." فسوف لا يغض طرفاً عن هذه المراتب العالية وسيقول: "أصبو لهذه أيضاً!"

أحد أساليب إبليس هو أنه يجعل الإنسان يقنع بالقليل

- أحد أساليب إبليس اللعين هي أنه يجعل الإنسان يقنع بالقليل قائلاً: "هذا يكفي!" بل ويهمس في أذنيه بمواعظ أخلاقية تدعو، في الظاهر، إلى التواضع من أنه: "ولِمَ تريد هذا؟!" فإن قلت مثلاً: "أريد أن أكون كآية الله بهجت(ره)" يقول: "لا تمزح! أين أنت من الشيخ بهجت! حسبُك أن تصلي ركعتين!" أما أنت فأجبه: "ولِمَ أقنع بالقليل!"
- القائلون: "فليُدخلونا الجنة على أية حال.. لا يهم في أي موضع منها! حتى لو في أوطأ درجاتها!" أمثال هؤلاء نسمّيهم: "جهنّميّي الجنة!" فهؤلاء ليس لهم رصيد تربوي سليم أبداً. فمَن إذن الذي يملك رصيداً تربوياً سليماً ليمارس التدين؟ إنه الشخص النفعي.. الذي لا يقنع بالقليل.. إنه الذي يحاول أن يسبق الآخرين.

عُلُوّ الهمة وعدم القناعة بالقليل هو أحد عناصر النفعية

- الراغب في التدين لا بد أن يكون نفعياً. وهنا نضيف إلى النفعية قيداً آخر هو "عُلُوّ الهمة وبعد النظر".
- إن من ركائز التدين لمن يشاء أن يتدين هو أن يكون ذا شخصية صفتها أنه يحب نفسه، بل ولا يقبل ببيع نفسه بثمن بخس، ولا يقنع بالقليل، ويهوى مصالحه إلى درجة

أنه إذا مُني بخســـارة توجه إلى ربه منتحباً قائلاً: "إلهي، لقد خســرت في هذه القضـية، ولا أحب الخســران.." هذه هي مختلف عناصر النفعية.

"الأنانية السيئة" هي أن تُفني مصالحك الطويلة الأمد لأجل مصالحك القصيرة الأمد

- إن لم تكن نفعياً فكيف تريدنا أن نحدثك عن الجنة والنار؟! من الجيد جداً أن يكون الإنســـان نفعياً، فالأنانية الســـيئة التي توصَــف في الأخلاق بأنها بذيئة هي شـــيء آخر! أولاً عبارة: "الأنانية ســيئة" لا وجود لها في الدين. ومراد البعض من أن الأنانية ســيئة هو "أن تقوم بنفســك بإفناء مصالحك الطويلة الأمد لأجل مصــالحك القصــيرة الأمد!" وعلى فكرة، فإنك ســوف لا تكون أنانياً في هذه الحالة! النفعية الســيئة أيضاً هي أن يختار المرء منفعة ضئيلة ويفرط بأخرى عظيمة.
- "الأناني الســيّئ" هو الذي يلتقط مصــالحه القصــيرة الأمد والقليلة ويبيد مصـــالحه الطويلة الأمد؛ كالطفلة الجاهلة إذا أتـاهـا لص قـائلاً لهـا: "هـاك هـذه الحلويـات ودعيني أنتزع قرطك وآخذه!" فتفرط بقرطها الذهبي من أجل بضـــع قطع حلوى!

الدين منهاج ينال الإنسان به مصالحَه؛ مصالحه المادية والمعنوية.. الدنيوية والأخروية

- لو أزيـل ســـوء التفـاهم حول الـدين فســـيقول بعض غير المتـدينين: "إذن فـأنـا مخطئ إذ لا أمـارس الـدين بـدافع الأنانية!" أجل، لأن الدين يقول لك: "إذا أحببت نيل مصالحك فتعـال أدلـك على الطريقـة، بـل إن الـدين هو منهـاج ينـال الإنســـان به مصــالحه؛ ســواء المصــالح المادية أو المعنوية والروحية، وســـواء المصـــالح الدنيوية أو الأخروية. وإذ ذاك ســـيصـــوّت الناس في الانتخابات، حتى وإن كانوا بلا دين، للشــخصــية المتدينة على أســاس "أنه يعرف كيف يضـمن للشعب مصالحه." بل إن الدين يعلّمنا هذا تحديداً.

- البعض يأخذ عليّ أن: "لماذا تفسّـــر الدين تفســـيراً نفعياً؟! أوَتَحمل رؤية وضـــعية يا ترى؟!" أقول لهؤلاء: "لكن هل في الدين شـــيء آخر غير أن يعلّمنا كيف نوفّر مصـــالحنا؟!" ولو قلتَ: "ماذا عن المقدسـات والقيم الدينية؟" لأجبتك: "حتى المقدســـات والقيم الدينية هي في صـــالحنا! فهل هناك قيمة فيها ضـرر لنا؟!" وإذا قلتَ: "إن هدف الدين هو إيصـالنا إلى الله!" لقلتُ لك: "حســـنٌ، وهل في هذا خســـارة لنا؟! إنه لصالحنا أيضاً!"
- إن من الخطأ أن نقول: "الدين أمرٌ يضـــر بنا أيما ضـــرر، لكن دعونا نتضرّر مرضاةً لله وفي سبيل قِيَمنا!"

لماذا يعارض الأمريكيون ديننا؟ لأنه في صالحنا نحن ويضر بمصالحهم هم!

- لمـاذا يعـارض الأمريكيون دينـا؟ لو كنـا عبـدة بقر أوَكـانوا سـيعارضوننا أيضـاً؟ كلا.. إذن لِمَ يخالفون هذا الدين تحديداً؟ لماذا لا ينقلون الواقع ويعتّمون إعلامياً إذا اجتمع 20 مليون زائر لاطمين الصـــدور حول مقام أبي عبد الله الحســـين(ع)، مُعلنين مثلاً: اجتمع 200 ألف زائر! في حين إذا اجتمع 20 مليون شخص في نهر في الهند قالوا بكل دقة: "اجتمع في الهند 20 مليون شـخص إحياءً لمراسـم كذا..!" لماذا يعتّمون على أخبارنا؟ لماذا يخافوننا؟ الســـبب هو أن ديننا هو في صـــالحنا نحن لكنه يضـــر بمصـــالح هؤلاء المجرمين! أما في الهند فمهما عبدوا الأبقار فهو لا يضـر بأمريكا، ولا هو لصـالح الهنود أنفسـهم، لذا يقولون: "دعهم يعبدون البقر!"
- أتظن أن الأمريكان والانجليز يخالفون الدين عموماً ويعارضـون كل ذي دين؟! كلا أبداً.. بل – بالمناسـبة - لو اسـتطاعوا عن طريق الدين أن يُنزلوا بشـعبٍ ظُلماً لأمسـوا من دعاة الدين أيضـاً، بل لخلقوا هم ديانة؛ كما فعل الانجليز في بلدنا هذا؛ فالبهائية ديانة صـــنعها الانجليز! إذن لماذا يعارضـــون ديننا هذا؟ لأنهم يرونه في صالحنا.

الدين يدلنا على الطريق التي نصبح عبرها قوة عظمى

- يقول لنا الدين: "تعالوا أدلكم على الطريق التي تصبحون من خلالها قوة عظمى!" إسـلامنا هذا يدلنا على الطريق التي نصـبح عبرها قوة عظمى، بل هذه هي حقيقة الدين. لكن في أي مدرسة وفي أي صف علّمونا هذا؟!
- أثناء دعوة رسـول الله(ص) الأولى ولدى نزول الآية: «وَأَنْذِرْ عَشِـيرَتَكَ الأَقْرَبِين» (الشـعراء/214) جمع(ص) عشـيرته وطائفة من أهل مكة يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم بأنهم إذا رغبوا في زعامة العالم كله فليقبلوا بدينه: «فَأَجِيبُونِي تَمْلِكُوا بِهَـا الْعَرَبَ وَتَـدِينُ بِهَـا لَكُمُ الْعَجَم» (أعلام الورى/ص39). فـالـدين إذن يـدل على سـبيـل التحول إلى قوة عظمى.. هذا الدين سيصنع منا قوة عظمى، فلماذا نخالفه إذن؟!
- الدين لا مهمة له سـوى أنه يحقق للإنسـان مصـالحه كلها وليس ثمة غير الدين منهاج يُتقن أو يستطيع فعل ذلك.

إن أردنا ممارسة الدين من منطلق النفعية فماذا عن الحب إذن؟!

- السـؤال الذي نود هنا الإجابة عليه هو: "إذا كان من المقرر أن نصبح نفعيّين وأصحاب تخطيط ومنهجة فماذا سيكون دور الحب والعاطفة في هذا الخضم؟"
- إذا أردنا أن نمارس الدين عن منفعة محضـة ونكلم الله من منطلق النفعية فماذا عن حديث الحب مع الله تعالى؟ وماذا عمّا في الدين من الحب والعاطفة والروائع الفنية؟ ألا يكون التديّن عن منفعة بارداً وجافاً بعض الشيء؟

مناجاة وأدعية أهل البيت(ع) أغلبها تنم عن منفعة لا عن حب!

- الجواب الأول: أسـاسـاً، لماذا تريد مبادلة الله بالغزل؟ من هو قدوتك في هذا؟ بمن تريد أن تتأسـى؟ فلو تصـفحت أدعية ومناجاة أولياء الله، في مفتايح الجنان مثلاً، لرأيت أن أغلبها تنم عن منفعة! فمَن من أهل البيت(ع) خاطب الله في

مناجاته بالقول: "يا عزيزي، أحبك! أشـــتاق إليك!" أليس محور الأدعية هو الاستغفار؟! ألا ينم الاستغفار عن منفعة؟!

- الإمام الحســين(ع) الذي هو مظهر العشــق والتجســيد له يخاطب ربه في ذروة دعاء عرفة قائلاً: «وَأَسْـــأَلُكَ اللَّهُمَّ حَاجَتِيَ الَّتِي إِنْ أَعْطَيْتَنِيهَا لَمْ يَضُـــرَّنِي مَا مَنَعْتَنِي وَإِنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ يَنْفَعْنِي مَا أَعْطَيْتَنِي أَسْـــأَلُكَ فَكَاكَ رَقَبَتِي مِنَ النَّار» (إقبال الأعمال/ ج1/ ص347-348). أوَليســـت هذه المناجاة ذات بعد نَفعي؟!

الإنسان يحب الله بباعث النفعية

- الجواب الثاني: الإنســان مخلوق أعمق محبة في نفســه لا تنفصـــم عن منفعته، وهو يحب لباعث نفعي. فليس الحب أن يفدي المُحبُّ (المحبوبَ) بنفســـه! فالله عز وجل يقول في الشـــهداء الذين يفدونه: إننا نعقد صـــفقة بيع وشـــراء؛ امنح أنت نفســـك وأنا أشـــتريها! «إِنَّ اللَّهَ اشْـــتَرى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَـــهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ في سَـــبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْـــتَبْشِـــرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بايَعْتُمْ بِه» (التوبة/111).
- إذا شـــئتَ أن تحب فأحِبّ الرب الذي يضـــمن لك جميع مصـالحك، وهذا الحب هو "حب عن تواضـع"، فالله لا يتقبل حباً عن تكبر! ادخل في تجارة مع الله وانظر أي صـفقة فيها عظيم الربح سيعقدها الله معك، وعندها ستحبه رويداً رويداً وتشعر بالخجل منه! إنك ستكون مديناً لإحسانه، والإنسان عبد الإحسان.
- إن هويتَ الحب فتعامل بنفعية وانظر كيف ســـيضـــمن الله مصـــالحك، ويثيبك إزاء كل عمل صـــالح تأتي به بعشـــرة أضـعافه، بل بألف ضـعف منه! انظر كيف ســيتجاوز الله عن معاصيك! إنك ستتعلق شيئاً فشيئاً بهذا الرب، ثم ستحبه وستهيم به حباً، ثم سترى نفسك في أمَسّ الحاجة إليه. علاقة الحب بين العبد والمولى هي علاقة الفقير

المستعطي بالغني؛ فلا نخلط بين حب الله وحب الولد والزوج!

الحب والمنفعة يمكن أن يجتمعا/ إذا أحببت الله رغبت في فدائه بنفسك لكن لا تستطيع ذلك

- **إذا** دخلت في تجارة مع الله من منطلق المنفعة وتوجّهت إليه ملتمساً دفعاً للضرر ورأيت كم سيتعاطى الله معك بروعة فستتعلق به تدريجياً كل تعلق حتى لتودّ أن تفديه بنفسك، لكنك لن تستطيع ذلك! ولذا فإنك ستظل تتقلب في نار هذا الحب، وسيشكل هذا نقطة العقدة في قصة علاقة حبك مع الله عز وجل.
- لقد هَمّ نبي الله إبراهيم(ع) بذبح ابنه بأمر من الله تعالى، فقال لابنه: «فَانْظُرْ مَاذا تَرَى»، «قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِين» (الصافات/102). وكان إبراهيم(ع) قد أعد كل شيء وهم بذح ابنه فأشار الله عليه أن: لا حاجة، هذا يكفي...
- فاغتم نبي الله إبراهيم(ع) كثيراً إذ لم يقدّم لمعبوده قرباناً... وضاق صدره إذ قد أعفاه الله من هذا الأمر!" فسأله الله إن كان يود حقاً أن يقدم له قرباناً؟ فكان جواب إبراهيم(ع) إيجابياً.. فقلبه كان ملوَّعاً.
- فرفع الله تعالى من أمام ناظريه الحجاب عن حادثة استشهاد الإمام الحسين(ع) وسأله: «...فَذَبْحُ وُلْدِهِ [ولد النبي محمد(ص)] ظُلْماً عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَوْجَعُ لِقَلْبِكَ، أَوْ ذَبْحُ وُلْدِكَ بِيَدِكَ فِي طَاعَتِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ بَلْ ذَبْحُ وُلْدِهِ ظُلْماً عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَوْجَعُ لِقَلْبِي» فقال الله عز وجل بعد أن أخبره بقبوله قربانَه: «يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ فَدَيْتُ جَزَعَكَ عَلَى ابْنِكَ إِسْمَاعِيلَ لَوْ ذَبَحْتَهُ بِيَدِكَ بِجَزَعِكَ عَلَى الْحُسَيْنِ وَقَتْلِهِ وَأَوْجَبْتُ لَكَ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ أَهْلِ الثَّوَابِ عَلَى الْمَصَائِب» (الخصال/ ج1/ ص59).
- فانظر أي صفقة وضعها الله بين يديك! إنه يعطي الجنة إزاء دمعة على الحسين(ع).. إذن فمن صالحك أن تبكي على

الحســـين(ع)! ها قد علمتَ بأن هذا في صـــالحك، فهل ســتمتنع عن البكاء بعد اليوم؟ إذن الحب والمنفعة يمكن أن يجتمعا، بل إن هذا الحب بالمناســبة أكثر تلويعاً للإنســان؛ لأنك ســـتكون عاشـــقاً، وتود لو تتنازل عن منفعتك، لكنه يُمنحك نفعاً أكبر، فتزيد تلوّعاً واحتراقاً.

أنانية الإنســان لا تزول أبداً، فاقصــد إلى الله عن أنانية. والله تعالى هو الآخر يريد أن يعمل من أجل مصالحنا، بل إنه لم يخلقنا إلا لنجني نحن منافع لأنفسنا، لا ليجني هو نفعاً منا! إنّ من المقرر أن نكتســـب في هذا الخضـــم منافع، إذن فلنقصد الدين تحصيلاً للربح!

ما الأضرار الناجمة عن فكرة "أن التدين صعب"؟

- بعض التعاريف والتعابير التي نسوقها لبيان الدين تبعث على ســـوء التفاهم وتغرس فكرة أن التديّن أمرٌ صـــعب! وغرسُ هــذه الفكرة يــدفع الكثير من غير المتــدينين إلى تبرير عزوفهم عن الدين متذرّعين بأن "التدين أمر شــاقّ، ولســنا نقوى عليه!"
- يعمل جانب من رســـالات الأنبياء على إقناعنا "بأن التدين ليس صعباً" وليس إقناعنا، بصورة من الصور، بتقبّل صعوبة الدين! فلو قيل لنا: "الدين صعب، لكن اقبلوا به رجاءً!" لاغترّ المتقبّلون للدين ويئس الرافضون له، وكلا الحالتين سيئة!
- إذا شــئنا إقناع أنفســنا بالتدين وترْكِ المعصية خطوة بخطوة فلا ينبغي أن نجعل التدين في أنظارنا شـــاقّاً، بل إننا لو اجتذَبْنا أحداً إلى الدين بهذا المنطق الخاطئ فســـنخلق منه متديناً مغروراً؛ أي يرى نفســه صاحب حق على الله، إذ يتصــور أنه أتى بأمرٍ في غاية المشــقة، وفي ســبيل الله لا من أجل منفعته هوا!

لماذا عبارة "دُسْ على رغباتك" غير سليمة؟

- إننا قد نستخدم عبارات عن الدين وفي سبيل إقناع الآخرين بالتدين تولّد فهماً معيّناً هو أن "الدين صـــعب". كأن نقول:

"دُسْ على رغباتك!" وهذه العبارة خاطئة حتى من الناحية الفلسفية.

- كيف لي أن أدوس على رغباتي إن أردتُ هذا؟ لا بد لي أن أدوس على بعض رغباتي عبرَ بعض رغباتي الأخرى. ومن هنا فإن مجاهدة النفس تعني أن تخالف مجموعةٌ من الرغبات الموجودة في نفسي مجموعةً أخرى من الرغبات الموجودة في نفسي أيضاً! وإلا فإن مخالفة الرغبات (كلها) شيء مستحيل.

ما من تصرّف يقوم به الإنسان إلا ويقوم به انطلاقاً من رغبته!

- ما من تصرف يقوم به الإنسان إلا ويقوم به انطلاقاً من رغبته! كأن يعطوك دواءً مُرّ المذاق لا تحب تناوله فلا تتناوله، فيخبرونك: "إن لم تتناول هذا الدواء فستصاب بالسرطان وتموت!" وستقول حينها: "حسنٌ، سأتناوله".
- إنك تريد أن تواجه رغبتك في أنه "لا أحب الدواء المُرّ". كيف تفعل هذا؟ تفعل هذا بواسطة رغبة أخرى لك هي: "أحب أن أبقى حيّاً". إذن في الحقيقة قد تصرّفتَ هنا أيضاً على أساس رغبتك. فحينما تخالف رغبتك فإنك في الواقع تتصرف وفقاً لرغبتك أيضاً! فمن المستحيل أن تخالف رغبتك ثم – في الوقت ذاته - لا توافق أي رغبة أخرى من رغباتك!

"مخالفة رغبة" تعني "موافقة رغبة أخرى"

- إذن فالمعنى الأدق لقولنا: "خالف رغبتَك" هو: "خالف رغبتك الأدنى هذه ووافق رغبتك الأعلى، والأقوى، والأشد قيمة، والأكثر لذة تلك". فصاحب السلوك السيئ إنما يخالف رغباته القوية؛ كأن يخالف "رغبته في أن يكون إنساناً". فهو أيضاً يجاهد نفسه، لكنه يجاهد الجوانب الجميلة من نفسه!
- والذي يجتنب الفعل القبيح هو أيضاً يجاهد نفسه، لكنه يجاهد الأقسام السيئة منها ويُشبع أقسامَها الحسَنة. فإن للصائم حال الإفطار نشاط وبهجة، وهو إن صام شهر رمضان

كله كان له يوم عيد الفطر نشـــاط وبهجة أكبر بكثير! لماذا النشـــاط والبهجة؟ لأنه قد عمِلَ بمقتضـــى رغبته؛ وهي: "أريـد - بـأمر من الله - أن أتغلـب على رغبتي في الأكـل والشـرب." فإنك تود أن تنجز هذا الفعل الصعب في الظاهر، وتستمتع بنجاحك في إنجازه.

- يوجد في كياناتنا رغبات وزوايا نورانية جميلة لو أشـــبعناها لأصبنا لذة أكبر بكثير؛ "كالرغبة في العبادة".

ما الرغبة التي تبعث على تقبّل الأُم مشاق تربية طفلها؟

- الأُم التي تتحمل المصـاعب وتســهر الليالي للعناية بطفلها إنما تُشـــبع رغبة الأمومة في ذاتها وتتصـــرف، في الواقع، وفق مصلحتها وتلتذ بتلبية رغبتها هذه. فهذه الأم قد تخلّت عن رغبة من رغباتها (مثلاً النوم، والخلود إلى التكاســـل، ..الخ) من أجل رغبة أخرى (هي حُب الأمومة). بالطبع نحن قد نسـمي هذا "تضحية" أو "فداءً".
- وهل يا ترى ثمة أُم تكره تربية الطفل مطلقاً؟! كلا، بل هي تحب هذا كثيراً بالمناســـبة. إذن هي تُشـــبع رغبتها أثناء تربيتها للطفل. فهل يجيز لنا العوام أن نقول: "هذه الأم في الحقيقة تقوم بعمل ينم عن أنانية؟!" فإنها تُشـــبع رغباتها الحسـنة وذلك الجزء الجميل من وجودها.

ما الفرق بين الرغبة السيئة والحسنة؟/ الرغبة السيئة هي الرغبة القليلة اللذة

- أتدري أين تكمن مشـــكلة الله مع الإنسـان؟ أتعلم متى تبرز المشـاكل لدى تعامل الدين مع الإنسـان أو تعامل الإنسـان مع الدين؟ يقول الدين للإنسـان: "أشـبع الجانب الجميل من رغباتك... لماذا تُشـــبع رغباتك التي لا قيمة لها؟!" وهاهنا يُطرح موضـوع "الهوى"، فالهوى يمثل الجوانب السـيئة من رغبات الإنسان!
- والســـؤال هنا هو: "ما الفرق بين الرغبة الســـيئة والرغبة الجيدة؟" الرغبة الســـيئة هي الرغبة القليلة اللذة، والرغبة الجيدة هي التي تكون أكثر لذة! فما هي الرغبة الســـيئة

التي يوصي الإسلام بمخالفتها؟ إنها تلك التي تجني منها لذة أقل. وما هي الرغبة الجيدة التي ينصح الدين بالإنصات إليها وإشباعها؟ إنها تلك التي لذّتُها أكبر!

لو أنك رأيتَ اللذةَ في ترك اللذة، لما رأيتَ في لذّةِ النفسِ لذةً!

- ما مصدر النشاط الذي ينتابك ساعة الإفطار؟ أوليس في تناول الطعام من لذّة؟! ما المتعة الموجودة في عدم الأكل كي تصيب كل هذه اللذة من الصيام؟ لقد تداول حكماؤنا بيتَ شعر يقول: "لو أنك رأيتَ اللذةَ في ترك اللذة، لما رأيتَ في لذّةِ النفسِ لذةً!" فالصائم يجني من صومه لذة هي أشد بكثير من لذة تناول الطعام.
- فرق الإنسان عن الحيوان هو أن الأخير لا يستمتع إلا بلذات ثابتة لا تتغير أما الإنسان فبإمكانه أن يعيش لذات أسمى لا يملك الحيوان أن يدركها على الإطلاق.

لو علم الناس أن الدين يصب في صالحهم لتسابقوا في التديّن

- لو أننا تكلمنا كلاماً دقيقاً عن الدين لتسابق الناس في التدين بالضبط كما يتسابقون إلى موضع إذا علموا أن فيه المال والثروة، أو عرفوا أن فيه منفعة مالية! وسيأتي يوم يصبح فيه التدين هكذا أيضاً.
- بتصورك، ماذا سيحدث في دولة صاحب الزمان(ع) حتى يتمكن من حكم العالم بأسره؟ أسوف يتغير الناس دفعة واحدة وتجتاحهم حالٌ معنوية؟ ليس هذا بالمنطقي! قيل في الحديث عن أبي جعفر الباقر(ع): إنه(عج) يمسح على رؤوس الناس فتزداد عقولهم: «إِذَا قَامَ قَائِمُنَا(ع) وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُم» (كمال الدين/ ج2/ ص675). فإن كمُلَت عقول الناس فهموا أن الدين في صالحهم، وإذا فهموا أن الدين في صالحهم تسابقوا فيما بينهم من أجل التدين وفعل الخير؛ كأن لا يذروا على الأرض فقراً ويفتشوا عن الفقير تفتيشاً ليتصدقوا عليه حتى لا

تعود تجد فقيراً لتدفع له صدقة! لماذا هذا التحول؟ لأن الفرد بات يدرك أن هذا الفعل يصب في صالحه.

إن كنت تفتش عن المنفعة المطلقة فإنك تفتش عن الله، وعندئذ ستبلغ "الإخلاص" أيضاً!

- إن كان في التدين صعوبة فلا صعوبة إلا في جانب واحد منه وهو أن نفهم "أن التدين هو في صالحنا!" أما الباقي فسهل. المهم هو أن تفتش عن المنفعة.. المنافع كلها بالطبع، لا الحد الأدنى منها فحسب! فحينما تفتش مطلقاً عن المنفعة، بل عن المنفعة المطلقة، فإنك في الحقيقة تفتش عن الله تبارك وتعالى؛ ذلك أن الله هو في صالحك، وحينئذ ستكون "مخلصاً" أيضاً!
- يتصور البعض أن المخلص هو من تخلّى عن جميع مصالحه قائلاً: "لا أريد شيئاً لمصلحتي أبداً، بل أريد كل شيء لمصلحة الله وحسب!" وهذا تصورٌ عامّي عن الإخلاص.

الإخلاص هو "أن تعمل من أجل أسمى مصالحك وحسب"!

- الإخلاص هو أن تعمل من أجل أسمى مصالحك.. من أجل أسمى مصالحك وحسب. فإن ضُمنَت أسمى مصالحك فسوف لا تعود بحاجة إلى مصالحك الأدنى. الترجمة الحقيقية للإخلاص لله هي أن لا تضع نُصب عينيك إلا مصالحك الأرفع. وما هي أرفع مصلحة للإنسان؟ هي أن يحب أن يكون الله عز وجل رفيقَه.
- أتعلم ما هو أشد عذاب على الإنسان يوم القيامة؟ هو أن لا يكلمه اللهُ في ذلك اليوم! «لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة» (آل عمران/77). فأشد عذاب على الإنسان ليس هو حرق جسده، بل هو الألم الذي يصيب قلبه، فهو إن لم يكلمه الله يموت حسرةً.. يقول: "إلهي! كلّمني!.. حسنٌ، سأذهب إلى النار.. فقط قل لي شيئاً! لماذا تكلّم باقي أصحاب النار؟ لماذا لا تتحدث إليَّ؟!"

- لا بد أن نترجم الإخلاص بصورة صحيحة؛ وهو ما معنى: "أن تكون خالصاً لله؟" معناه أن تعثر على ذلك الجزء من نفعيتك الذي يقول: "إن في أعماقك رغبة هي أن تكون أنت ملكاً لله فحسب، ويكون الله لك وحدك". فإن عثرت على رغبتك هذه وأشبعتها فهذا هو غاية الإشباع بالنسبة لك.

اِقصِد الدين تحصيلاً للربح!

- أنانية الإنسان لا تزول أبداً، فاقصد الله عن أنانية. والله تعالى هو الآخر يريد أن يعمل من أجل مصالحنا، بل إنه لم يخلقنا إلا لنجني نحن منافع لأنفسنا، لا ليجني هو نفعاً منا! ولماذا يريدنا الله أن نجني نحن نفعاً؟ لأنه كريم.. لأنه رَبّ! إذن مَن مِنَ المقرر أن يكتسب منفعة في هذا الخضم؟ إنه نحن.. إذن فلنقصد الدين تحصيلاً للربح!
- ما من أحد لا يجني من التدين نفعاً! فمهما توغلت في التدين سترى أنه في صالحك. ألم يكن رسول الله(ص) وأمير المؤمنين(ع) أكثر من نالوا من ربهما نفعاً؟! يقول القرآن الكريم: هناك من بين الناس من يبيع نفسه لله إزاء رضاه تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَاد» (البقرة/207). لكن لماذا يبيع نفسه؟ لأن قلبه يهفو إلى رضى الله وإن في هذا ربحَه؛ أي إنه يجني من رضى ربه هذا لذة أكبر من التي يجنيها من أي شيء آخر.

لماذا الدين غريب؟ لأننا لا ندرك أنه في صالحنا

- لماذا الدين غريب؟ لأننا لا ندرك أن التدين هو في صالحنا. كما أن أغلبنا ليس نفعياً، بالمعنى التام للكلمة، أبداً؛ أي إننا لا نفتش عن أسمى منافعنا. من هنا فإنه لا بد أولاً أن يُنشئنا أحدٌ على النفعية!
- أليس من القبيح أن لا يطالب الإنسان بأرفع مصالحه؟ ألا يشبه إنسانٌ كهذا الحيوانَ؟ ألا يكون شخص كهذا غريباً وضيّق الصدر ومكتئباً ومتعباً وعاجزاً؟! فالقبيح هو أن

يقاســـي المرء العذاب والآلام من دون جدوى، والجميل هو أن ينال الإنسان أسمى المنافع، ويحصّل النشاط، ويزدهر.

كيف يجتمع التدين عن نفعية مع العشق؟

- الســؤال الذي كان قد طُرح في المحاضـرة الأولى هو: "كيف يمكن الجمع بين التدين عن نفعية والعشـــق والتدين عن عشق؟"
- علينا أولاً أن نعرف ما هو العشـــق؟ وهل إن تصـــوّرنا عن العشـــق صــحيح أســاســاً أو لا؟ بأبســط العبارات نقول: "العشـــق هو الحب العارم أو أشـــد أنواع الحب". على أن العشق في اللغة العربية يعني اللجاجة.
- إذا أخذنا العشــق بمعنى "المحبة الشــديدة" فهذا صــحيح، ففي الذكر الحكيم أيضاً قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ» (البقرة/165). أما إذا ترجمناه بمعنى: "أن تفدي المعشــوق بنفســك وتتنازل عن مصالحك!" فلا معنى لهذا عند الإنسان! اللهم إلا إذا تشتت ذهنه، أو دُفع إلى التسرّع ففدَى نفسَـــه، وهاهنا أيضـــاً ســـيكون هذا مثار ندمه، لأن الإنسان مخلوق أناني!
- روي عن الإمام الصـــادق(ع) أنه قال: «جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ يَنْفَعُهَا وَبُغْضِ مَنْ أَضَرَّ بِهَا» (الكافي/ ج8/ ص152).

ليس العشـــق أن "تتنازل عن كل مصـــالحك"/ أولياء الله تغاضـــوا عن منافع حقيرة من أجل منافع أضخم

- العشـــق بمعنى أن تتنازل عن مصـــالحك تماماً هو ما لم يحصـــل حتى مع أولياء الله وفي علاقتهم معه عز وجل؛ فأولياء الله لا يتغاضــون عن جميع منافعهم في ســبيل الله! بل لقد تغاضـــوا عن نفع أقل في ســـبيل نفع أكثر! ولهذا الســـبب تحديداً كان الإمام الحســـين(ع) قد اعتذر إلى الله حتى في مصرعه ورأى نفسه مديناً له تعالى!
- لماذا يشـــعر أولياء الله دوماً أنهم مدينون لله تعالى؟ لأن الله في كل خطوة تخطوها نحوه (ســواء أكانت كاملة أو ناقصة)

سـيهيل عليك من الأجر ما يُخجِلك ويجعلك مديناً له عز وجل! بل ليس باستطاعتنا أن نخطو خطوة لصالح الله دون أن نكون فعلنا ذلك لمصلحتنا، بل ولا أن نتخذ خطوة لا تكون فيها منفعة لله في الوقت الذي نكون قد تغاضينا عن أنفسنا! وهل يسمح لنا الله أصلاً أن نتغاضى عن أنفسنا؟!

- تفسير العشق بالتضحية أو بالرغبة التي تجر صاحبها إلى التضحية بالمصالح وإفنائها هو ما لا يتسنى للإنسان تصوّرُه. خُذ حب الأم لولدها مثلاً، فالأم التي يقال إنها "تضحي في سبيل ولدها!" هي، في الواقع، تُشبع رغباتها الجميلة والسامية. وإن الذي يُشبع رغباته السامية سيجني منفعة أكبر من الله ومن الحياة على حد سواء. ناهيك عن أن الإنسان إذا أشبع رغباته العالية فإنه سوف يتنامى ويزداد عظمة.

الشهداء ضحوا بمصالحهم الهابطة في سبيل مصالحهم العالية

- حتى الشهداء وضعوا مصالحهم العالية بعين الاعتبار، فما إن شاهدوا الأخيرة حتى فدَوها بمصالحهم الواطئة. إذن ليس في قاموسنا "حُبٌّ" تفسيره أن يضحي المرء بنفسه مطلقاً، أو أن يتنازل عن جميع مصالحه، أو عن أسماها.
- قد يقول قائل: "إنني أفديك بمالي"، وهو إذ يضحي بماله إنما يُشبع في نفسه رغبة أسمى، فتراه يلتذ بإنفاق أمواله في سبيل حبه! إذن هو يُرضي نفسه أيضاً. فالذي لم يضحِّ بماله هو متعلق "بحب المال"، أما هذا الشخص فقد تعلق "بحب المعشوق"، لكن كلاهما يتصرف وفقاً لرغبته.

هل تجتمع النفعية مع العشق؟!/ المنفعة الضئيلة لا تستثير العشق

- كيف يجتمع العشق، بمعنى الحب الغامر، مع النفعية؟ هذا السؤال عادة ما يطرحه مَن يرى النفعية في المصالح الدنيوية الضحلة؛ مثلاً: أخذُ "شهادة الدكتوراه" من قبل المرء فيه منفعة له لكنه لا يملك أبداً أن يحب هذه الشهادة

إلى حد إنشـــاد الشـــعر فيها وذرف الدموع من أجلها، لأنها منفعة ضحلة لا عليا.

- المصـــالح الضـــحلة لا تختطف قلوبنا، أما المصـــالح العليا فبإمكانها فعل ذلك. فلا تقل إذن: "لا يمكن الجمع بين النفعية والعشـــق؟" فإنها المنفعة الضـحلة التي لا تسـتثير فينا حباً غامراً.

المصالح السامية هي التي من شأنها أن تغرس فينا الحب

- الســـبب في طرح الناس للســـؤال التالي: "كيف يُجمع بين النفعية والعشـــق؟" هو أن المنافع الضـحلة لا تســتثير حباً جامحاً، وهي لا تُشبع هذا اللون من الحب أيضاً، ولهذا فإنها لا تجتمع مع العشق، لكن الذي قد شاهدَ منافعه الإنسانية والروحية السامية فإنه سيقع في حبها وسيذرف الدمع من أجلها. وهاهنا ســـيتحقق مصـــداق: «أَشَـــدُّ حُبّاً»، وهو العشق.
- مرادنا من العشـــق هو محبة المصـــالح الرفيعة العالية، وإن الذي في ميسـوره أن يثير في أعماقنا العشـق ويُضـرم في أرواحنا النار ويُلهبنا هو المصـــالح الســـامية. فإن بلغتَ مصـــالحك العالية وضـــحّيتَ بمنافعك الواطئة في ســـبيلها فســـتشـــتعل نار العشـــق في كيانك، وســـتقول حينئذ: «أعشق العالم كله لأن العالم "له!» (شعر)

السبيل إلى حب الله هي النفعية!

- لماذا يتكلم خلقٌ كثير عن حب الله ثم لا تجد مُحبّاً لله إلا نادراً؟ على كم مُحبٍّ لله يمكنك العثور؟! إنهم ندرة! لماذا؟ لأنهم لم يسلكوا سبيله! وما هي سبيله؟ هي النفعية ولا غير! ونحن الآن نسلك السبيل ذاتها.
- حينما تكون العقدة الأســـاســـية في قصـــة الدين هي ترك المعصـية فإنها إذن نقطة الانتقال إلى العشـــق! وأين يكمن العشـق؟ أين يكمن أشـد ألوان الحب الذي يُحرق الإنسـان؟ أين تكمن تلك المحبة الجامحة التي يســـكب المرء من

أجلها الدمع غزيراً ويُعوِل لها كل عويل؟ إنها تكمن في مصالح الإنسان السامية، لا في تلك الهابطة!

ما دامت عينك تلاحق منافعك الضحلة فإنك لن تعشق الله!

- يروى عن رسول الله(ص) قوله: «حُبُّ الدُّنْيَا وَحُبُّ اللهِ لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ أَبَداً» (مجموعة ورام/ ج2/ ص122). فإنك لا تظفر بمحبة الله حتى تُخرج حب الدنيا كله من أعماقك. فما دامت هناك ذرة من محبة الدنيا في قلبك فلن تدخله ذرة من محبة الله! أي ما دامت عينك تلاحق منافعك الضحلة فلن يضطرم في قلبك ذلك العشق الذي هو نتاج المصالح العليا.
- الكل يود أن يعشق.. الكل يهوى أن يلتهب.. فلماذا لا يلتهبون إذن؟ لأن عليك غض الطرف عن منفعتك الهابطة! ليس أن تتغاضى عن منافعك عموماً، بل أن تهتم بمنافعك الرفيعة وتتنازل عن تلك الواطئة.
- إذا رغب الإنسان بمصالحه العليا جاشَ في قلبه حبٌّ عارم سيلتهب كيانُه له التهاباً شديداً لا حد له!
- لِمَ حبّ الدنيا سيئ؟ لأنه متاع قليل.. لأن لذته طفيفة.. لأنك إذا أُصبتَ به لم تفرح كثيراً. ولماذا تنتهي بعض الزيجات بعد مدة قصيرة إلى الطلاق؟ لأن الزوجين يتوقعان أشياء مهمة ستقع بعد الزواج، لكنهما يخرجان بخُفَّي حنين، فيبغض أحدهما الآخر! والحال أنه ما كان من المقرر أن يقع شيء مهم! بل كان من المقرر – بالمناسبة - أن تكتشف أنه لا شيء مهم هنا، فتمرّ، ماضياً إلى حيث ثمة شيء حقّاً!

الإنسـان مخلوق نفعي لا يحب إلا إذا انتفَع، وهو لهذا يحب كل من يُحسن إليه. إذن الطريق إلى حب الله هو أن نعرف إلى أي مدى يوفّر لنا الله مصالحنا؟ ولو تأمّلنا في أنعم الله بأعين مفتوحة متفحّصة لأحببنا الله شيئاً فشيئاً.

أي ألوان النفعية سيئ؟ هو أن يسعى الإنسان وراء المنفعة القليلة

- النفعية أساساً ليست سيئة. فأي ألوان النفعية سيئ إذن؟ هو أن يسعى الإنسان وراء المنفعة القليلة؛ فهذا النمط من النفعية يفسد أخلاق المرء، ويقسي قلبه، وليس فيه لذة المحبة. لكنك إن طالبتَ بجميع منافعك، بل وبأسماها فستغدو إنساناً في منتهى رقة القلب، واللطف، وحُسن الخلُق، والرحمة، والمحبة.
- كما قد بيّنا في المحاضرات السابقة فإنه ينبغي أن نفهم التدين على أنه أمر نفعي، وأن نربّي الطفل منذ نعومة أظفاره على حب المنفعة كي يُمسي متدينا؛ ذلك أنه لا انفصام بين التدين وبين توفير المنافع ومنح اللذات المادية والمعنوية والروحية. فلماذا نعرّف التدين بطريقة توحي بأن على المتدين أن يضحي بمصالحه ويتغاضى عن لذّاته وأن يعمل وفقاً لمعتقداته، ويحترم المقدسات والقيم! فمثل هذا التعريف بالدين خطأ أصلاً.

العامل بدينه لا يخطو خطوة إلا بما ينسجم ومصالحه

- أولاً العامل بدينه لا يخطو خطوة إلا بما ينسجم ومصالحه. ثانياً كونُ الدين مُدّعياً وصاحب حق معناه أنه عندما تقول: "قررتُ أن أكون متديناً" سيقول الدين لك: "هل أنت، أساساً، نفعيّ أو لا؟" فإن أجبتَ "بنعم" قال لك: "إلى أي مدى أنت نفعي؟ أخشى أنك قليل النفعية!.. إن عليك أن تطالب بمنافعك بقوة، وأن تطالب بها جميعاً."
- علينا، إذا أحببنا تنشئة امرئ لجعله مهيَّأً لتقبّل الدين، أن نغرس فيه مجموعة من السمات الشخصية؛ إحداها أن يكون شديد الحساسية إزاء مصالحه كلها بحيث لا يجد في نفسه استعداداً للتنازل حتى عن بعضها.

يريدنا القرآن أن نؤمن ونتديّن بطريقة التجار

- يقول لنا القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم» (الصف/10). وتشير كلمة "التجارة" في الآية إلى الربح والمنفعة، وتفيد عبارة "النجاة من العذاب" تفادي ضرر عظيم؛ فهي تخيف الإنسان من العذاب كي يُقبل على هذه التجارة الزاخرة الأرباح خوفاً من العذاب على الأقل، إذا لم يتعاطاها طمعاً في الربح.
- ثم يقول في الآية التالية: «تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون» (الصف/11)؛ تعالوا وآمنوا بالله ورسوله إيمان التجار، وجاهدوا في سبيل الله... وهو تحديداً الجهاد عن عشق ومحبة. انظر إلى أي مدى هو ذا بُعد تجاري! ثم يقول في آخر الآية: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون!» أي إنه ينوّه مرة أخرى بالبُعد النفعي للإنسان.

لماذا صارت "النفعية" في أنظارنا غير مرغوب فيها؟

- الأدبيات الجميلة في نظرنا هي في الغالب أدبيات الحب والعرفان، أما تلك التي تحكي النفعية فهي في أنظارنا غير جميلة، بل وسيئة! أتدري لماذا صارت النفعية في أنظارنا بذيئة وغير مرغوب فيها؟ لأننا شاهدنا ثلة من الأشخاص النفعيين ممن يسعون وراء المنافع الضحلة... هؤلاء هم الذين أفسدوا النفعية في أنظارنا! فالمطالبة بالمنفعة القليلة سيئة، لكن المطالبة بالمنفعة عموماً ليست سيئة، بل لو طالب المرء بأسمى منافعه، التي منها رضوان الله تعالى، فهذا – بالمناسبة – في قمة الجمال، بل إن هذا - على فكرة – شُغل أولياء الله الشاغل، وقد خلع الله عز وجل عليه اسم "التجارة".
- يقول عز من قائل: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَاد» (البقرة/207)؛ أي هناك من الناس من يبيع روحَه ليتقاضى إزاءها رضى الله تعالى.

أتـدري فيمَن نزلـت هـذه الآيـة؟ نزلـت في علي بن أبي طالـب(ع) عندما نام "ليلة المبيت" في فراش النبي(ص)! فهل ثمة يا ترى من هو أشـــد عشـــقاً من علي بن أبي طالـب(ع)؟! فعلي بن أبي طالـب(ع) كان قد أُصـــيبَ في سـبيل الله بأضخم عدد من الجراح مما لم يُصَب أحد بمثله، لكن الله يعبّر عن ذلك "بالتجارة"، وهي تفيد النفعية؛ بالطبع هو نمط من النفعية رفيع جداً يحصل المرء إزاءه على رضوان الله تعالى.

النفعية في سبيل الخير حسنة حتى وإن كانت دنيوية!

- متى تكون النفعية ســـيئة؟ النفعية تكون ســـيئة إذا كانت ضـئيلة أولاً، وكانت في ســبيل أمر رديء ثانياً، أما إذا كانت في سبيل الخير فهي حسَنة حتى وإن كانت دنيوية.
- كان أحد أصــحاب أبي عبد الله الصــادق(ع) (وكان الإمام قد دفع إليه مبلغاً من المال ليتّجر به له) قد أخبر الإمام(ع) بأنه ربح له في تجارته مالاً كثيراً نسـبياً (مائة دينار): «فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ رَبِحْتُ لَكَ فِيهَا مِائَةَ دِينَارٍ. قَالَ: فَفَرِحَ أَبُو عَبْدِ اللهِ(ع) بِذَلِكَ فَرَحاً شَـــدِيداً» (الكافي/ ج5/ ص76). وهل الفرح لكســـب المال ســيّئ يا ترى؟! كلا، فإن أحببتَ إنفاق المال من أجل مولاك بوصـفك عبده، أو فرحت بكســب هذا المال كشـخصٍ عليه واجبات وبمقدوره مســاعدة الكثيرين مســتخدماً هذا المال أداة لعبوديته لربه فليس هذا غيرَ سـيئ فحسـب، بل وحسَـنٌ أيضاً.
- أما إذا كان فرحك لأجل صـرف المال على أمور دنيّة وخاطئة، أو لتتصـور أنك قد اسـتقلَلتَ بهذه المنفعة عن الله جل وعلا، فلم تعد تطرُق بابَه مسـتعطياً ملتمسـاً، فهذا سـيّئ، ومهما زاد فرحك به زاد قلبك قسوة.
- قال أحـدهم للإمام الصـــادق(ع): «جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّا لَنُحِـبُّ الدُّنْيَا» فما أتعسَــنا! فســأله الإمام(ع) عن قصـده من حب الدنيا فقال – مثلاً – أود أن أملك المال والثروة...! «فَقَالَ(ع) لِي: تَصْــنَعُ بِهَا مَاذَا؟ قَالَ: قُلْتُ: أَتَزَوَّجُ مِنْهَا، وَأَحُجُّ، وَأُنْفِقُ

عَلَى عِيَالِي، وَأُنِيلُ إِخْوَانِي، وَأَتَصَـــدَّقُ. قَالَ(ع) لِي: لَيْسَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا، هَذَا مِنَ الآخِرَة» (السرائر/ ج3/ ص564).

هل يمكن للتدين عن منفعة أن يكون تديّناً عن حب أيضاً؟

- موضـوعنا في هذه المحاضـرة هو كيف يتسـنى الجمع بين النفعية وبين ممارسـة الدين عن حب، وكون الدين مصـدراً للحماس والإثارة واللذة؟ فلو تعبّدنا عن منفعة فما هو مصير الحب والمشاعر الروحانية الجميلة؟ هل يمكن للتدين على خلفية المنفعة أن يكون تديّناً عن حُب أيضاً؟
- وكان الجواب الأول أنك إذا طالبتَ بمنفعة ضـئيلة خبُثَت روحُك، وقسـا قلبك، وعَدِمتَ الحب، ولم تُدرك المشـاعر الدينية. أما إذا رميتَ ببصـرك إلى أسـمى منافعك، ورغبت في أبعدها منالاً، بل وأعطيت منافعك المادية أيضـاً بُعداً سامياً فسيرقّ قلبُك أيما رقة وتتفجّر عاطفةً.

الإنسان يحب مَن ينفعه نفعاً عظيماً

- الجواب الثاني: الشـخص الذي يريد نفعَك سـوف لا تحبه كثيراً إذا كان نفعه لك ضئيلاً، لكن حبك له سيكون كبيراً إذا نفعك نفعاً عظيماً.
- فيما روي مما أوحى الله تعالى لموسى(ع) أنه تعالى أوصاه بأن يحبّبه إلى الناس. فسـأله موسـى(ع) عن الطريقة وما عليه صـنعه كي يحب الناسُ اللهَ؟ فأشـار الله عليه بأن يذكّرهم بأنعمه عليهم ويُحسـن إليهم، فإنه بهذا سـيحبّب الله إلى قلوبهم. لأن الله قد خلق الإنسـان بحيث إنه يحب من يُحسن إليه: «أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى(ع): حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي، وَحَبِّبْ خَلْقِي إِلَيَّ. قَالَ(ع): يَا رَبِّ، كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ: ذَكِّرْهُمْ آلائِي وَنَعْمَائِي لِيُحِبُّونِي» (التفسير المنسوب إلى الإمام الحسـن العسـكري/ ص342). وفي حديث آخر: «أَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى: ذَكِّرْ خَلْقِي نَعْمَائِي وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَحَبِّبْنِي إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ لا يُحِبُّونَ إِلاّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِم» (إرشاد القلوب/ ج1/ ص116).

الإنسان مخلوق نفعي لا يحب إلا إذا انتفَع

- لأن الإنســان نفعي ويحب كل مَن يحســن إليه فإن الطريق إلى حُـبّ الله هو أن نعرف إلى أي مـدى يضـــمن لنـا الله مصــالحنا؟ ولو تأمّلنا في أنعم الله بأعين مفتوحة متفحّصــة لأحببنا الله شـيئاً فشيئاً. فالإنسان مخلوق نفعي لا يحب إلا إذا انتفَع. وهو حتى إن أحب امرأً ثم لاحظ بعد برهة أن حبه هذا لا ينفعه خرج هذا الحب من قلبه، بل وســـيتحول إلى كراهية إذا أدرك أنه يضــره. فليس للإنســان في قاموســنا حب بلا منفعة!
- روي عن رسـول الله(ص) قوله: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي» (الأمالي للصدوق/ ص364).

ما الذي سيجعلنا نحب الله إذا شرَعنا بالنفعية؟

- ما الذي سـيجعلنا نحب الله إذا شرَعنا طريقنا بالنفعية؟ الذي ســـيجعلك كذلك هو أنك حين تدرك أن الله يوفر منافعك بغزارة وهو نافع لك جداً فإنك ســتحبه. يبقى الســؤال أنه: هل تسـتطيع أن تحصي كم أن الله نافع لك؟!
- أتعرف في هـذا العـالم رجلاً أعظم عشـــقــاً من الإمـام الحســين(ع)؟ وإذا به(ع) مســتغرق، خلال ما يفوق نصــف دعاء عرفة، في شـــكر الله عز وجل وإحصــاء آلائه! فهو(ع) يصــرّح في الدعاء مخاطباً ربه أني لو شــكرتك بجميع ذرات وجودي لما بلغتُ شكرك.. أنا عاجز عن إحصاء نعمائك!
- متى يتبلور حبك؟ يتبلور حينما تعرف أن الله كله منفعة لك! ولمـاذا إذن لم نحب الله تعـالى؟ لأننا عـاجزون عن معرفة أنعمـه حق المعرفـة. ففي الحـديـث: «مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ فَقَدْ أَدَّى شُـــكْرَهَا» (الكافي/ ج2/ ص96).

أربعة شروط أساسية لحب الله تعالى

- لا بد من النفعية من أجل التدين! فإن صرتَ نفعياً فحسبك أن تحصي منافعك مرة واحدة كي تهيم في الله حباً! إذن الشرط الأول للمحبة هو أن يكون الإنسان في منتهى النفعية؛ أي أن يطالب بمنافعه بقوة، وعندها سيعشق مَن يوفّر له منافعه أفضل توفير. الشرط الثاني هو أن نلاحظ: إلى أي مدى يوفر الله لنا منافعنا؟!
- الشرط الثالث لكي نحب الله من منطلق النفعية هو أن نعرف الأضرار التي يجنّبُنا الله إياها. فإن تحققنا من أن الله ينقذنا من كوارث مهلكة فسنحبه. أفَتدري ما الموت؟ أتعرف ما القبر؟ أتدرك ما عالم البرزخ، وما صحراء المحشر، وما نار جهنم؟ لا بد أن ينجيك الله من هذا كله! فإن عرفت حقاً أي أخطار هذه لالتصقت بالله التصاقاً ولذُبتَ به ذوباناً!
- الوجه الثاني من عُملة النفعية هو اجتناب الضرر. فإنّ بوسع الله أن ينجيك من عذاب أليم؛ فهو تعالى يقول: «..تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم» (الصف/10). ولعل سبب عدم حبك لله هو أنك لم تعرف إلى الآن ما العذاب الأليم! إنّ كل لحظة من لحظات نزع الروح هي أشبه بألف ضربة سيف مسموم في بدن المحتضر! لقد جعل الله الموت بهذه الصورة غير أنه سبحانه على استعداد لإنقاذنا من هذا العذاب الأليم وتيسير الموت لنا؛ ولو طلبتَ هذا من الله حقاً لأنجاك. لكن لا بد لك أولاً أن تعلم ما القصة كي تلوذ بالله تبارك وتعالى ومن ثم تلمس كم ستهيم به!
- وما الشرط الرابع لمحبة الله تعالى؟ إننا، وبوصفنا نفعيين، نرتكب الخطايا؛ ذلك أنه لا بد أن نكون أحراراً لنملك قدرة الاختيار ولنكتسب قيمة ورُقِيّاً.. لهذا فلربما نأتي بالخطايا. والله من جانبه يخاطبنا: "هل تريد أن أصفح عنك؟" فيتولد عندنا تعلق واحتياج آخر لربنا، ألا وهو الاستغفار. فنخاطبه: "إلهي، أرجوك وأتوسل إليك أن تصفح عني...". بل إن الله قادر على استبدال حسنَةٍ بسيّئتك هذه!

حب الإنسان لربه ينبع من ثنايا نفعيته

- ما هو موضع تبلور حب الإنسان لله؟ موضعه الاستغفار، والشكر، واللجوء إلى الله طلباً للنجاة.. نفس هذه الأمور المتداولة، لكننا لا نأخذها بجدية فلا تجعلنا نحب الله! فالبعض لا هو يرى نعمة ربه فيشكرها، ولا هو يلمس مصلحته الطويلة الأمد فيتمناها، ولا هو يُبصر الأضرار المحدقة به فيلوذ إلى الله منها.. ثم يريد أن يحب الله! لا يُدرى على أي أساس يريد أن يحب الله؟! بل إن بعض الناس هو التكبّر بعينه! ويريد أن يحب الله هكذا دون التفات إلى أي واحد من احتياجاته هذه إلى ربه.
- حب الإنسان لربه بنبع من ثنايا نفعيته، فلو كنتَ نفعياً لأدركتَ علُوّ قيمة الاستغفار! ولو كنتَ نفعياً لاستوعبتَ معنى تبديل السيئات حسنات! أي: إنني أذنب والله يكتب محل ذنبي ثواباً! فإننا قد لا نكون نفعيين أساساً؛ فلا ندرك قيمة عفو الله عنا، ولا قيمة نعمته علينا، ولا قيمة النجاة من العذاب!

علاقة العبد بمولاه تقوم على "نفعية العبد واجتنابه الضــــرر" و"لطف مولاه به"

- الملاحظة الأخرى هي أن علاقة حبنا بالله هي من جنس المحبة بين العبد والسيد، والسيد في هذا النمط من المحبة مانح، لا مُتَلقٍّ!
- العلاقة بين العبد والمولى تختلف عن الآصرة الزوجية، وآصرة الأمومة والبنوة، وآصرة الأخوة. فعلاقة العبد بالمولى هي أن تصطنع ألف ذريعة لتأخذ من مولاك. وما معنى الأخذ؟ إنه المنفعة! فالله يلطف بك مرة بحجة كذا، ويلطف بك أخرى بحجة أخرى، ويلطف بك ثالثة بحجة ثالثة... بل ما بيننا وبين الله علاقة سوى هذه؛ إذ ليس في ميسورنا أن نمنح نحن اللهَ شيئاً!

- تكون علاقة العبد بالمولى مثيرة غرامية رائعة لطيفة إذا كانت على مستوى حب أمير المؤمنين(ع) لربه وأحاسيسه تجاهه وعبَراته وانفعالاته بين يديه! وتكون جميلة إذا بلغَت غَورَ أدعية أئمة الهدى(ع) وارتفاع ضجيجهم المُؤجّج للنشاط في جوف الليل حتى منبلج الصبح على أعتاب الله عز وجل. ولو خُضتَ هذه العلاقة للَمستَ أنها تقوم بشكل رئيس على كسب المنفعة واجتناب الضرر! بل ليست العلاقة بين العبد وسيده إلا هذه!
- إلهي، لطالما عملتَ لمنفعتي، وما من خير فعلتُه إلا كنتَ أنت الممهد له، وما من سيئة اجترحتُها إلا باختياري أنا، فماذا أصنع بسيّئاتي؟! أأنت صافح عني سيدي؟! وإن صفحتَ عني فماذا عن خجلي منك؟! فإن اعتذرتُ فأنت أيضاً الموفّق لي لاعتذاري...! هذه علاقة حب لا يملك كل مَن هبّ ودَبّ أن يدركها!
- عن الإمام الباقر(ع) إن الله لا يريد من عباده غير أمرين؛ أولهما أن يقرّوا بالنعم إذا أنعمها عليهم (أن يعرفوا أنها لمنفعتهم) وثانيهما أن يعترفوا بذنوبهم إذا أذنبوا (أن يعلموا أنها مُضرّة لهم)، وهذا حسبُهم.. وهو تعالى لا يتوقّع منهم أكثر من ذلك: «لا وَاللهِ مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّاسِ إِلاّ خَصْلَتَيْنِ: أَنْ يُقِرُّوا لَهُ بِالنِّعَمِ فَيَزِيدَهُمْ وَبِالذُّنُوبِ فَيَغْفِرَهَا لَهُم» (الكافي/ ج2/ ص426).

حال أيّهما أفضل: الذي يركض هرباً من التعاسة، أم الذي يركض طمعاً للفوز في سباق؟ لا شك أن المتسابق حاله أفضل. لكن الأمهات – مع الأسف – قد يتسبّبن في شقاء أطفالهنّ وينتزعن حس السباق منهم بأن تقول الأم لطفلها: "إن لم تواصل دراستك فستكون تعيساً!"

الذي يريد التديّن عليه أن يوفر في شخصيته بعض الممهّدات

- الذي يريد التدين عليه أن يوفر في شخصيته بعض الممهدات ويحلّ في ذهنه بعض المشكلات كي يتعامل مع الدين، ولاسيما مع موضوع "ترك المعصية"، بحساسية ويقيم معه علاقة جيدة.

- مَن لم يقتنع بأصـــل التدين فســـوف لا يقتنع بقضـــية ترك المعصـــيـة. فقـد يكون الكثيرون أهـل دين، لا بـل مؤمنون ومتـدينون إلى حـد مـا، لكن لم يختمر التـدين في عقولهم بعدُ كي يحتل موضــوع المعصــية مكانة بارزة في أذهانهم! بمعنى أن قضـــيـة ترك المعصـــيـة والتعـامـل مع الـذنـب بحسـاسـية لم تحتل مكاناً مرموقاً في حياتهم. فالذي يكون حسـاسـاً تجاه الذنب لا بد أن تصـير التوبة بالنسـبة له في غاية العذوبة والحلاوة.

من أجل التديّن وترك المعصية لا بد للمرء أولاً أن يكون مخططاً لحياته

- الذي يرغب في أن يكون حســاســاً تجاه شـــيء اســـمه "الـذنـب" أو – على نطـاق أوســـع – أن يتعـامـل مع الـدين بحسـاسـية ويقيم معه علاقة حسـنة فإن عليه أولاً أن يكون مخططاً لحياته. لا بـد لشـــخص كهذا أن يلقَّن منذ نعومة أظفـاره أنـه لم يولَـد في هـذه الـدنيـا إلا "ليعيش حيـاة مُمَنهجـة"؛ فمن دون برنـامج ليس بـإمكـان المرء أن يحقق مصـالحه، ومن دون خطة لا يسـتطيع الرجل درء عدوّه، ومن دون منهاج لا يمكن التمتع بالحياة، ولا التســـلية فيها، ولا الازدهار.. الخ.
- الإنسـان المخطط لحياته يتقبل الدين بشـكل أفضـل، فهو إن أخطأ في موضع ما انزعج لكون خطته فسدَت؛ كالذي خطط للذهاب إلى مدينة رسـول الله(ص) ووضـع لكل شـيء جدولاً زمنياً دقيقاً، وإذا بمشـكلة تعترضه وسـط الطريق، كأن تعطل سـيارته مثلاً، فيضطرب الجدول الزمني لجميع الأمور التالية! لا شـك أنه سـينزعج كثيراً، لأنها كانت قطعة في لعبة "بازل" ضخمة وغيابها قد أربك اللعبة بأكملها.
- متى يشـــعر المرء بحســـاســـية تجاه العمل الذي يقوم به؟ يشـعر بذلك عندما يدرك أن عمله هذا يمثل جزءاً صغيراً من برنـامج ضـــخم! فمثلاً عنـدما تخطط لتلاوة زيارة عـاشـــوراء لأربعين يوماً فلا بد أن كل خطتك سـتفسـد إذا لم تتلُها ليوم واحد!

سبب صعوبة الدين عند غالبية مَن يرونه صعباً هو أنهم غير مَنهجِيّين

- سبب صعوبة الدين عند غالبية الذين يرونه صعباً هو أنهم غير منهجيين وأنهم لم يعتادوا على العيش وفق خطة وبرنامج. نعم، قد ينجز غير المنهجي جميع أعمال الشخص المنهجي، لكن على شكل ردود أفعال، ومن دون جدوى، وبالإكراه، وباستياء، وبشكل مبعثر، ومن دون نتيجة بالطبع! أما الشخص المنهجي فيقوم بالأعمال نفسها جميعاً لكن وفق برنامج معيّن فيحصل على نتائج جيدة للغاية.
- إذا بدأتَ بممارسة الدين وفق منهاج خاص فسترى كم سيكون الدين أنيقاً وراقياً في نظرك، وهذه بالضبط هي حقيقة الدين؛ أي إن الدين هو حقاً أنيق وراقٍ إلى هذا الحد، لا أننا نحن الذين نحاول زخرفته!

على كل من أراد التدين أن يكون إنساناً "نفعياً"

- الخطوة الثانية للاقتناع بالتدين - كما قد مَر - هي أن يكون كل من أراد التدين إنساناً نفعياً. فحينما يُنجز كل واحد منا عملاً بما تمليه عليه رغبتُه فإنه في الواقع يُشبع رغبتَه وينجز العمل بما يجر عليه هو نفعاً روحياً.
- بل إن النفعية غير منفصلة عن روح الإنسان. فلماذا تُحمّل الأم نفسَها كل هذا العناء من أجل طفلها؟ إنه على وقع حس الأمومة. الجميع يقول: "الأم لا تفعل هذا بدافع النفعية، بل تقوم به عن محبة!" حسنٌ، إن فعل الشيء عن محبة لا يتعارض مع النفعية! فالمنفعة لا تكون في المال فقط، بل إن إشباع الأم لشعور الأمومة في داخلها هي منفعة أيضاً.. فالنفع الروحي هو الآخر منفعة، والنفع النفسي هو كذلك منفعة.
- حب الذات لا ينفصم عن الإنسان في أي حال من الأحوال حتى في ذروة حالات العشق لربه تعالى. فقمة العشق، التي يدعوها العرفاء "الفناء في الله"، هي في الواقع ليست فناءً، بل هو بقاءٌ تام.. هو كسبٌ تام.. هو أخذٌ تام!

فالذي يقال إنه "قد فنى في الله" هو – بالمناسبة – قد أخذ من الله أزيد من مما أخذ أيُّ إنسان آخر، وهو الآن أوفر حظاً من الجميع، وقد غدا أكبر من الكل أيضاً!

إذا علم المتدينون أن "التدين يعني النفعية" لم يصابوا بالغرور

- التدين هو النفعية! لا بد من قول هذا لغير المتدينين، بل وللمتدينين أيضاً! فلو علم المتدينون أن تدينهم هو عن منفعة فسيذهب عنهم الغرور، إذ سيعلمون أنهم كلما توغلوا في التدين أكثر كان ذلك في مصلحتهم أكثر وسيصبحون مدينين لله أكثر من ذي قبل. ولو عرف المتدينون أنه ما من عمل يأتون به إلا ويصب في مصلحتهم لكان التزامهم بالصلاة أشد.
- ولو كنا قد أوضحنا لغير المتدينين أن الدين في صالحهم لما شهدنا الآن كل هذه الضجة حول الحجاب! ولما دار الجدل حول ما إذا كان الرقص في المدارس مباحاً أو لا! فمعظم هذه النزاعات التافهة تأتي على خلفية خطابنا الديني الخاطئ! سببها أننا قلنا: "كُفّوا عن هذه الأعمال السيئة من أجل معتقداتكم!" في حين كان علينا أن نقول: "هذه الأعمال لا تصب في صالحكم، بل فيها خسارة لكم!"

الخطوة الثالثة لتكون لنا "شخصية متدينة" هي أن نكون "ذوي سباق"

- الخطوة الثالثة من أجل أن نتحلى بشخصية متدينة لا تطيق المعصية وأن نقتنع بالكف عن الذنب هي أن نكون من هواة السباق؛ أي أن لا نكون من القانعين بالحد الأدنى من المنافع، بل أن نطالب بالمنفعة، لا بل نطالب بأعلاها، وبأسرعها، وبجميعها، ونطالب بها أفضل من الباقين.
- يا ترى ما الذي يطلبه من الدين هذا الذي لا يطالب كثيراً بمنفعة نفسه؟! فليذهب ويشاهد المسلسلات التي تبث مضامين أخلاقية! فإن الذي يفتش عن بعض الأخلاقيات لا حاجة له بالدين!

الدين نهجُ أولئك الذين يطالبون "بالحد الأعلى من المنافع"/ الذي لا يطالب بالحد الأعلى من المنافع لا يتحلى بشخصية دينية

- الدين نهجُ أولئك الذين يطالبون بالحد الأعلى من المنافع. الدين لا ينفع الشخص الذي لا يطالب بأعلى حد من منافعه! فإن قلتَ لأحدهم: "لا تستمع إلى الموسيقى السيئة لأنها تعيقك عن بلوغ الحد الأعلى" وأجابك: "أنا لا أريد أن أبلغ الحد الأعلى!" فسوف لا يبقى لديك كلام تقوله له!
- بل إن الذي لا يطالب بالحد الأعلى من المنافع ولا يريد أعلى الدرجات لا يتحلى بشخصية دينية. بل إن شخصاً كهذا لا يذرف الدمع لمعصيته، لأنه لا يدرك حجم الخسارة التي سبّبَتها له.
- نعم، البعض يتسابق في أمور هابطة تافهة كي لا يقال عنه أمام الآخرين إنه فاشل! كأن يقيم حفلات ضيافة فارهة كي لا يُوصف بالفشل أمام قريبه الفلاني أو لكي يتفوّق عليه! فمرادُنا ليس هذه المسائل التافهة.

القرآن الكريم يدعونا إلى التسابق!

- يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْض» (الحديد/21).
- وعن الإمام علي بن الحسين(ع) أنه قال: «مَعَاشِرَ شِيعَتِنَا، أَمَّا الْجَنَّةُ فَلَنْ تَفُوتَكُمْ، سَرِيعاً كَانَ أَوْ بَطِيئاً، وَلَكِنْ تَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَات» (التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري(ع)/ ص204).
- ثم يتابع(ع) بأنك لو أتيت بهذه الخيرات... (مثلاً أن تحسن إلى الفقراء وإخوانك في الدين...) أتدري ما سيحصل؟ إنك ستسبق صاحبك مائة ألف سنة! «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَرْفَعَكُمْ دَرَجَاتٍ، وَأَحْسَنَكُمْ قُصُوراً وَدُوراً وَأَبْنِيَةً فِيهَا أَحْسَنُكُمْ إِيجَاباً لِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَكْثَرُكُمْ مُوَاسَاةً لِفُقَرَائِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُقَرِّبُ الْوَاحِدَ مِنْكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ يُكَلِّمُ بِهَا

أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَبِأَكْثَرَ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ تَقَدَّمَه» (نفس السابق).

- يا ترى هل لنا نحن الرغبة في أن نخلف الآخرين وراء ظهورنا ونتقدّم عليهم؟ يسـأل سـائل: "ما لي لا أذرف الدمع إذا ناجيت الله تعالى؟" تُجيبه: "لأنك لست أهل سباق! فالذي أعدّ نفسه للسباق تراه يبكي إذا خسره!

الدين ليست غايته انتشالنا من التعاسة فحسب

- الدين لم يأتِ لانتشالنا من مستنقعات التعاسة الآسنة فحسب، بل جاء لإنقاذنا من أوحال الحياة "بسيارة سباق" ولكي يبلغ بنا الذُرى! أي إن قضية السباق ماثلة منذ البداية، فالأمر لا يقتصر على الانتشال من المستنقعات الآسنة، بل هذه هي خاصية الدين أساساً، وهي أنه ينطوي على سباق.
- عن رسول الله(ص) أنه قال: «التَّقِيُّ سَابِقٌ إِلَى كُلِّ خَيْر» (أعلام الدين/ ص186)؛ أي إنه لا يتعامل مع أي خير تعامُل الحد الأدنى. وهذا هو معنى التقوى تحديداً! والله عز وجل يقول أيضاً: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِين» (المائدة/27)؛ أي لا يتقبّل إلا من المتقين، وفيه شكل من أشكال الشعور بالسباق. فالإنسان المتقي هو الذي تكون عاقبته على خير، وليس الإنسان المكتفي بالحد الأدنى من الدين!
- ويقول عز من قائل أيضاً: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات» (البقرة/148)؛ أي تسابقوا من أجل الخيرات! ويقول تعالى في آية أخرى في حق المؤمنين: «وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَات» (آل عمران/114). وروي عن الإمام الحسين(ع) قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ وَسَارِعُوا فِي الْمَغَانِمِ وَلَا تَحْتَسِبُوا بِمَعْرُوفٍ لَمْ تَعْجَلُوا» (كشف الغمة/ ج2/ ص29)؛ أي لا تعوّلوا أبداً على فعلكم للخير إذا لم تفعلوه بمسارعة وتعجيل واشتياق!
- ويقول سبحانه وتعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون» (المؤمنون/60)؛ أي الذين يفعلون

ما يفعلون وقلوبهم خائفة من أنهم سـيرجعون إلى ربهم. "والوَجَل" لا يعني الخوف السلبي، بل الاضطراب والقلق الخاص الذي يحصل للإنسان في الحالات الإيجابية، ويكون عذباً ولا يحطم أعصاب صاحبه.

- ثم يقول في الآية التالية: «أُولئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُون» (المؤمنون/61)؛ أي يقيسون أنفسهم بغيرهم في فعل الخير كي يسبق بعضهم بعضاً.

ليكن لديك شعور سباق!/ لا تكبت حسّ التسابق الجميل عند الأطفال!

- يقول عز وجل في كتابه العزيز: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (هود/7)؛ أي لقد خلق كل هذه السماوات والأرض ليرى أيكم أفضل؟ فهو إذن سباق. ويقول في موضع آخر: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (المُلك/2)، فهو لا يختبركم لينظر أيكم صالح وأيكم طالح، بل هو – من البداية – سباق ليريمَن منكم أفضل من غيره؟
- ليكن لديك شعورُ سباق. أما ترى الشعور الرائع الذي يمتلكه الأطفال؟ دائماً يلذ لهم التسابق مع بعضهم البعض. وهذا شعور جميل أُودع في كيان الإنسان لكننا مع الأسف نعمل عادة على كبت هذا الشعور فينا! فكم يتحمس الطفل للتسابق مع أقرانه لكننا ننبّهه باستمرار أن: "اجلس في مكانك! كفاك تهوّراً!" فينسَلّ خلسةً ويتناول لابتوباً أو جوالاً ليلعب بالألعاب والسباقات غير الواقعية في الفضاء السيبري وما إليه! في حين أن علينا أن نقحمه في سباقات حياته الجادة.
- أتدري لماذا يكون البعض سريع البكاء جداً في المناجاة؟ ألأنه غارق في تعاساته؟ كلا، بل لأن الذي يبذل جهوداً مضنية ليفوز في سباق ثم يخبرونه "بأنك لم تفز فيه!" فإنه سيبكي! وليست دموعه هذه ناشئة عن تعاسة، بل هي صادرة عن شعور جميل.

لربما تسبّبَت الأمّهات في شقاء أطفالهن بانتزاع حس السباق منهم

- حال أيّهما أفضل: الذي يركض هروباً من التعاسة، أم الذي يركض طمعاً للفوز في سباق؟ من الواضح أن الذي يركض سعياً للفوز في سباق حاله أفضل. لكن الأمهات – مع الأسف – قد يتسبّبن في شقاء أطفالهن فينتزعن حسّ السباق منهم بقولهن لهم: "إن لم تواصل دراستك فستكون تعيساً!"
- ما طبيعة الحياة التي سيوفرها الإمام صاحب الزمان(عج) للناس إذا ظهر؟ إنه(عج) سيهيئ للناس الحد الأدنى من المعيشة، أما باقي الحياة فستكون سباقاً! فلأن الجميع مرتاح البال من أنه لن يشقى أحد في ذلك الزمن فسوف لا يقصد أحدٌ عملَه بدافع التعاسة. وحتى لو أفلس أحدُهم فإن معيشته مضمونة... إنه(عج) سيخلق هذه الظروف كي يكون الهدف من ممارسة الحياة والعبادة هو الارتقاء والتقدم.
- أساساً ما الحكمة من أن تعمد الدولة الدينية إلى ضمان الحد الأدنى من معيشة الناس؟ إنه من أجل أن يصل الناس إلى الله عز وجل، أو بعبارة أخرى: لكي "يصبحوا أهل سباق".

يقول الدين: "ليكن لديك باعثُ سباق" ويقول بعض الأخلاقيين: "لا ينبغي أن يكون لديك باعثُ سباق!"

- بعض المفكرين في حقل الأخلاق وبعض النفسانيين ممن يمارس تهدئة الأعصاب هو كارثة بمعنى الكلمة! لماذا؟ لأنه يقول: لا ينبغي أن يكون لديك باعثُ سباق؛ فاضطراب الفوز وألم الخسارة يؤذيانك! أمثال هؤلاء يسعون جهاراً ليجعلوا من الناس عبيداً وخرافاً! لا ريب أنك رأيت كيف أن الخراف لا تتسابق مع بعضها أبداً.. فهي في طمأنينة!
- يقول بعض المفكرين الأخلاقيين: "لا ينبغي أن يكون لديك باعثُ سباق!" أما الدين فيقول: "ليكن لديك باعثُ سباق!"

قد تسأل: "وماذا عن الاضطراب الذي يولّده الفوز والخسارة؟" يجيبك الله: "لكن أنا موجود! لا تغلبُني حتى إغفاءة خفيفة.. أنا أساعدك.. أنا رب! بل أنا أفرح إذا رغب عبدي في الفوز...". فتقول له: "وماذا لو خسرتُ يا ربي؟!" فيجيبك: "أيُعقَل أن أدعَك تخسَر؟!" تقول: "افترض أنني خسرت!" فيقول: "أنا موجود، سأتدارك الأمر لك! لأي شيء تريد إقامة علاقةٍ معي إذن؟!"

كُن أهل سباق! ما لم تدخل في سباق فسوف لا تُدرك ألوهية الله!

- أساساً، ما لم تدخل في سباق فسوف لا تدرك ألوهية الله عز وجل! الله يمد لك يد العون منذ اللحظات الأولى من السباق ولا يجعلك تخسره، بل يهيئ لك بنفسه أسباب الفوز فيه. وإن كنت مولعاً بكسب السباق حقاً فسيفتش الله لك عن عمل جميل، يسهُل إنجازُه، فيضعه في طريقك ويقول لك: "أنجز هذا العمل"، أي إنه عز وجل يساعدك على كسب السباق بسهولة!
- كن أهل سباق! وإلا فكيف تريد أن تستوعب حقيقة المعصية؟! أتدري ما المعصية؟ المعصية هي أن ترتكب خطأ وتخسر هذه الجولة من السباق. ثم يأتي الله ويتدارك لك الأمر! وهاهنا تبدأ علاقتك بالله تعالى.

لو نظرت إلى التدين نظرة سباق لتغيّرَت أجواء حياتك وعبادتك!

- لو نظرت إلى التدين نظرة سباق لتغيّرَت في عينيك أجواء تدينك وحياتك ولباتت شيئاً آخرا!

يتشاجر بعض الأزواج في بيوتهم ويحاول كل منهما التغلب على صاحبه فلا يتنازل له. لكن لو تسابقا على أنه أيهما يكون أكثر صلاحاً فإنهما سيفكران بالطريقة التالية: "الآن وقد حصل شجار فلنرَ أي واحد منا يحوز على ثواب أكبر؟" فلو فكر المرء بهذه الطريقة لتنازل أمام الطرف الآخر قائلاً له: "حسنٌ، القول قولك!" وعندها يكون المتنازل هو الفائز في السباق.

عالمنا هو عالم يتعين العيش وفق ضوابطه ولا يمكن أن يعيش المرء مخالفاً لها. نعم يحاول البعض تناسي هذه الضوابط كي يعيش براحة أكبر، وهذه ليست طريقة سليمة وهي تضر بالإنسان أيما ضرر. الطريقة التي يقترحها الدين هي أن نلتمس الراحة في التعوّد على الحذر والمراقبة واحترام قوانين العالم وضوابطه.

قبل أن نتجه صوب الدين علينا أن نعلم أننا نعيش في عالَم منظَّم أموره محسوبة

- من العوامل التي تمنحنا توجّهاً إيجابياً نحو الدين هو أن نعرف أنه: في أي عالم نعيش؟ ومن العوامل التي تثير فينا الحساسية تجاه المعصية هي أن نعرف أنه: في أي عالم نعيش؟ إننا نعيش في عالم هو في منتهى التنظيم، أموره محسوبة بدقة، وله ردود أفعال. وإن آثار الفوضى التي نخلقها فيه تحيق بنا بالكامل. فليس في مقدورنا إذن أن لا نتكيف مع هذا العالم المنظم غاية التنظيم.
- قبل أن نتّجه نحو الدين علينا أن نعرف أين نعيش؟ هذا العالم ليس عالماً فوضوياً، بل هو منظّم بكل معنى الكلمة. إننا نعيش في عالم منظم كهذا وليس في مقدورنا أن نمارس فيه أي تصرف!
- بالطبع القبول بمثل هذا العالم المعقد والمنظم جداً والذي تحكمه القوانين صعب بعض الشيء والناس بطبيعة الحال تحب عدم الاكتراث بهذه القوانين كي ترتاح، في حين أن عدم الاهتمام بهذا الموضوع يضر بالإنسان.

قبل أن نتدين علينا أن نقتنع بأنه ليس من حقنا في هذا العالم المنظم أن نمارس ما نشاء

- علينا أن نقتنع قبل الدخول في الدين بأنه ليس من حقنا أن نمارس ما نشاء في هذا العالم المنظّم!.. لا ينبغي أن نظن أن الحياة تدار بالصُدَف! فهذا العالم محسوبة أموره حساباً،

ولا بد لتصرفاتنا عندما نعيش فيه أن تكون محسوبة، لأن ردود الأفعال على تصرفاتنا ستنعكس ضدنا.

- يجب أن نماشي الطبيعة لأننا نحيا معها. فلا نستطيع أن نتعامل مع الطبيعة بالطريقة التي تطيب لنا؛ ذلك أن ردود أفعالها وآثارها السلبية ستنعكس علينا نحن. فالنوم بين الطلوعين مثلاً مضر بصاحبه كل ضرر وهو أشبه بضربات موجعة يوجّهها الإنسان لجسمه ودماغه وأعصابه! فهذه الطبيعة على أية حال تدفعنا إلى مجموعة من التصرفات ولا يسعنا أن نعاملها بعدم اكتراث.
- لا يستطيع الأبوان أن يعاملا أطفالهما بالطريقة التي تحلو لهما، بل ولا يحق لأحدهما أن يتصرف مع الآخر أو يكلّمه أمام أنظار الأولاد كما يحب، ذلك لأن ردود أفعال هذه السلوكيات ستنعكس عليهما هما وستخلق للأبوين أنفسهم ظروفاً صعبة.

قواعد العالم المعقدة لا تسمح للإنسان أن يتصرف كما يلذ له!

- لو كنا نحمل طموحاً عالياً جداً فيما يتصل بمصالحنا، ولو كنا نرغب في الحصول على منافعنا كلها وبلوغ قمة الازدهار، ولو لم يكسّر أحد أجنحتنا، ولو لم نكبُر ونحن عديمي الشخصية، ولم نَقنَع بالقليل، ولو كنا من هواة التسابق - لو توفر فينا كل هذا فلا بد أيضاً أن نعرف العالم الذي نحن نعيش فيه! فلو أدركنا حقاً أنه في أي عالم منظّم نحن نعيش لعرفنا أنه لا ينبغي أن يبدر منا ولو تصرف واحد غير مدروس. وهل يجوز فعل أي شيء في عالم كهذا؟! وهل تتيح لنا قوانين الفيزياء أن نفعل في هذا العالم ما نشاء؟! فما كل هذه الجامعات وما كل هؤلاء العلماء إلا ليتعرفوا على قواعد الطبيعة ويدرسوها قليلاً ليتمكن سكان الأرض من أن يحسّنوا أوضاع حياتهم تحت قوانين هذا العالم المعقدة. وإنها لقوانين خاصة لا ترضخ لأي بشر أبداً وليس فيها أي مرونة على الإطلاق.

من الممكن معرفة آثار بعض المعاصي حتى خارج نطاق الدين

- إن من المتيسر دراسة آثار ونتائج بعض التصرفات والمعاصي حتى خارج نطاق الدين. فالآثار السلبية لقضايا من مثل "عدم التحجّب"، "والتفكير في المعصية" هي مما يمكن معرفته

وقياسه فسلجياً بكل دقة، ولو شمّرَت جامعاتنا عن سواعدها لأمكنها الحصول على نتائج هذه الأمور، بالضبط كما تتم مشاهدة آثار الكذب بوضع بضع متحسسات على جسد الإنسان.

- لا ينبغي أن نغتر بقوة الشباب وعنفوانه فنفعل بأنفسنا في هذه المرحلة من العمر ما يستنزف هذه الطاقة فينا! فمثلاً يجب أن نعلم أنه ليست كل موسيقى هي مناسبة لروح الإنسان، وأن لبعض ألوان الموسيقى آثاراً سيئة على جسم الإنسان وأعصابه وروحه.
- من ناحية أخرى فإن تعاليم الدين العبادية؛ مثل الصلاة، وقيام الليل، وإطالة السجود، ومدّ القنوت، وصلاة الليل، ..الخ، لها آثار إيجابية حتى على جسد الإنسان. إذن حتى الجوانب الفيزيائية لهذه العبادات يمكن دراستها. فقد جاء في الحديث أن لصلاة الليل والتبكير في الاستيقاظ أثراً في سلامة البدن: «قِيَامُ اللَّيل مَصَحَّةٌ لِلبَدَن» (المحاسن/ ج1/ ص53). وجاء أيضاً: «صَلاةُ اللَّيل مَرضَاةٌ لِلرَّبِّ... وَرَاحَةُ الأَبدَانِ» (إرشاد القلوب/ ج1/ ص191). وأملنا في الأطباء والفيزيائيين والكيمياويين وبعض متخصصي العلوم الأخرى أن يعملوا مع مرور الزمن على إثبات الآثار الإيجابية للعبادات.

أول مقترح يقترحه الدين للتعامل مع هذا العالم المنظّم هو "التعود على المراقبة"

- نحن نعيش في عالم منظّم ومحسوبة أموره إلى أبعد الحدود وعلينا أن نعرف الطريقة التي علينا اختيارها للتعامل مع هذا العالم؟ يقول البعض ليريح باله: "دعونا ننسى من الأساس أن هذا العالم منظّم إلى هذا الحد!" وهذا أسلوب خاطئ بالتأكيد؛ ذلك أن الآثار السلبية لعدم الاكتراث لنظام هذا العالم إنما تنعكس علينا نحن، ولهذا فلا يمكننا التعامل مع هذه القضية بلاأبالية والتصرف بالشكل الذي نهواه.
- يقترح الدين علينا مقترحان: الأول هو أن نفعل ما يسهّل علينا مراقبة ومراعاة قواعد حياتنا في هذا العالم، لا أن نسهّل حياتنا من خلال تناسي قوانينه! كأن نستمتع بحياتنا – مثلاً – من خلال التعوّد على تناول الأطعمة المغذية السليمة عوضاً عن الاستمتاع بها من خلال تناول كل ما يلذ لنا تناوله.

فهذا القرآن الكريم يخاطبنا: «فَلْيَنْظُر الإنْسَانُ إلَى طَعَامِهِ» (عبس/24) أي فليدقق فيما يأكله!

- المقترح الأول الذي يقدمه الدين هو أن تعمل لمدة من الزمن على التخطيط لاحترام قوانين هذا العالم حتى يصبح مهارة من مهاراتك. يقول إمامنا الباقر(ع): «عَوّدُوا أَنفُسَكُم الخَيْرَ» (الخرائج/ ج2/ ص596)، فإذا عودت نفسك على فعل الأمور الحسنة فستسهل عليك الكثير من الأمور. فمن أجل تعلّم قيادة السيارة مثلاً يتحتم عليك أن تكتسب مهارة استعمال دواستي المكابح والقابض وناقل الحركة كل في وقته المناسب. فإنه بعد أن تكتسب هذه المهارة ستقود السيارة بكل سهولة، وليس أن تقود السيارة كما يحلو لك دون اكتساب أي مهارة، لأنك في هذه الحالة ستتكبد ضرراً جسيماً.
- عالمنا عالمٌ يتعيّن العيش وفقاً لضوابطه ولا يمكن أن يعيش المرء مخالفاً لها. نعم يحاول البعض تناسي هذه الضوابط كي ينعم بعيش أكثر راحة وهذه ليست طريقة سليمة للحياة وهي تضر بالإنسان أيما ضرر.

فلنفتش عن الراحة في التعوّد على المراقبة واحترام قوانين العالم وقواعده

- الطريقة التي يقترحها الدين هي التفتيش عن الراحة في التعوّد على المراقبة واحترام قوانين العالم وقواعده. على أنه لا ينبغي انتهاج طرق المرتاضين الهنود بحجة احترام هذه القوانين، ولا الإفراط الشديد في المراقبة؛ فإن للمراقبة حدوداً خاصة وضوابط معيّنة، ولا يجوز للمرء أن يقسو على نفسه في عملية المراقبة.
- حينما يأمرنا الدين بأوامر ويسمّي عدم امتثالنا لها معصية فلا بد أن نعلم أن العلة من وراء أوامره هي أن هذا العالم يحكمه نظام صارم ومحسوب بدقة. إنك غير قادر على أن تعيش في هذا العالم من دون نظام!.. حتى الحيوانات لا تحيا من دون نظام؛ القطط على سبيل المثال تصاب أحياناً بنوع من الأمراض ولا بد أن تجد طعاماً أو نبتة خاصة تأكلها لتشفى من مرضها، فإذا بغريزتها تدلها على البحث عن هذا الطعام وتناوله لتبرأ من المرض! أما فيما يخص الإنسان فقد تُرك له الخيار لكي يعرف الأشياء المفيدة والصالحة له. ومن هنا يقول تعالى في محكم كتابه: «فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»

(عبس/24)؛ أي عليه أن يتفحص ما يأكله ويتمعّن فيه. والذين يتحرّون الدقة فيما يأكلون تراهم يخرجون بنتائج جيدة (فيما يتصل بصحة أبدانهم وأرواحهم).

المقترح الثاني للدين: لُذ بأحضان الله كي يمحو خطيئاتك

- إذن المقترح الأول الذي يقترحه الدين هو: إذا أحببت أن تحيا مرتاح البال "فعليك اكتساب مهارة الضبط والمراقبة". لكن هناك للدين مقترح آخر أجمل من هذا بكثير؛ فهو يقول لك: "إذا كان العيش في هذا العالم المنظم للغاية شاقاً عليك فافعل كما كنت تفعل في أيامِ الصبا حينما كنت تلوذ بأحضان أمك متى ما أفسدتَ شيئاً لتعمل هي على تدارك ما أفسدتَ أنت (فتغير لك ثيابك، و..) فارتمِ الآن أيضاً في أحضان الله ولُذ به ليبدّد لك هواجسَك ويصلح ما أفسدتَ بخطيئاتك.
- يقول الله عز وجل لك: "إذا كان العيش في هذا العالم المنظّم والمعقد شاقاً عليك فتعالَ وعش معي! وسآخذ بيدك بنفسي.. سأتدارك أنا ما أفسدتَ!"
- هل في مقدور الله إذا ما تناولنا طعاماً غير سليم أن يحمينا من آثاره السيئة؟ أجل، فبالدعاء والذكر قد يتم إصلاح ما أفسدناه حتى في مجال الطعام والشراب، وذلك بأن يكتسب المرء طاقة روحية ومعنوية بإمكانها أن تعوّض ما نقَص الطاقة المادية التي كان ينبغي أن يكتسبها جسمه.

للإنسان قوى عديدة ومتنوعة/ مصدر قوة المؤمن ليس طعامه، بل نيّته

- مصدر قوة المؤمن - كما في الحديث – ليس طعامه، بل نيته: «إِنَّ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ. أَلا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ تَجِدُونَهُ ضَعِيفَ الْبَدَنِ نَحِيفَ الْجِسْمِ وَهُوَ يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَار» (من لا يحضره الفقيه/ ج3/ ص560). فإذا قويَت نية الإنسان استطاعَ أن يحمّل بدنَه الأضعاف من الأعمال.
- سُئل أمير المؤمنين(ع) عما إذا كانت القوة التي اقتلع بها باب خيبر قوة جسدية فكان جوابه أنها كانت قوة روحية؛ «مَا قَلَعْتُ بَابَ خَيْبَرَ وَرَمَيْتُ بِهِ خَلْفَ ظَهْرِي أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً بِقُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ وَلا حَرَكَةٍ غِذَائِيَّةٍ لَكِنِّي أُيِّدْتُ بِقُوَّةٍ مَلَكُوتِيَّةٍ وَنَفْس بِنُورِ رَبِّهَا مُضِيئَة» (أمالي الصدوق/ ص514). كما سُئل(ع) عن أنه كيف تصرع أعداءك الأشداء أرضاً وتنتصر عليهم؟ فكان جوابه أني - في البدء – أغلبهم بما لي من هيبة في

نفوسهم ثم أعالجهم بالسيف؛ أي إني أشل عدوي أولا بنظرة شديدة مني، فتكون ضربة السيف في عدو مشلول متهالك أمراً يسيراً! «وَقِيلَ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ(ع) بِمَ غَلَبْتَ الأَقْرَانَ؟ قَالَ: بِتَمَكُّنِ هَيْبَتِي فِي قُلُوبِهِمْ» (مناقب آل أبي طالب/ ج2/ ص116).

- للإنسان قوى عديدة ومتنوعة. فلا تعجب إذا عرفت أن ابن سينا كان إذا أراد حل مسألة علمية معضلة صلّى ركعتين ثم بدأ يحلّها!

العالم وكيان الإنسان كلاهما له نظام دقيق جداً؛ إذن نحن بحاجة إلى منهاج دقيق جداً

- عالمنا عالم منظّم إلى أبعد الحدود، كما أن كيان الإنسان كيان معقد للغاية، ولا بد لنا من التعامل مع هاتين المنظومتين: منظومة كيان الإنسان (روحه وجسمه)، ومنظومة الطبيعة! إذن نحن بحاجة إلى خطة دقيقة ومُحكمة.
- لا بد أن تزودني بكراس يخبرني بما أصنع. من هنا ترى ديننا قد أعد منهاجاً يستوعب حتى أضأل شؤون الحياة. فلقد وضع – على سبيل المثال – لآداب كنس الدار تعليمات؛ ففي الحديث إنك إن لم تنظف الدار بطريقة كذا فسيدخلها الشيطان، وإن لم تقلّم أظفارك في الوقت المناسب دخل تحتها الشيطان، ..الخ. ويذهب بعض المفسرين إلى أن "الشيطان" في هذه الأحاديث يعني الميكروب نفسه؛ أي الشيء المؤذي لحياة الإنسان.
- كان الشهيد الكبير الدكتور باكنجاد قد ألّف قبل الثورة كتاباً تحت عنوان "اولين دانشگاه، آخرين پيامبر" (الجامعة الأولى، النبي الخاتم) جمع فيه نتائج الدراسات العلمية حول آثار وفوائد بعض تعاليم الدين الإسلامي. وكنا نأمل أن يصار بعد انتصار الثورة إلى المزيد من الأعمال في هذا المجال لكن هذا لم يحصل مع الأسف.
- انظر كم من الآداب ذُكرت في تراثنا الحديثي حول تناول الطعام! فكم قد أوصي بتناول الخضار مع الطعام!.. لاحظ أي آداب وتوصيات وردت في تناول البصل واللحم! بل حول كيفية طهي اللحم، سلقاً أو شَيّاً مثلاً! لماذا لا ننظر إلى تعاليم

الدين هذه من زاوية صحية طبية أو من منطلق العلوم التجريبية؟!

- يوصى في أكل التمر مثلاً أن يؤكَل عدد فردي من حبات التمر لا زوجي (تمرة واحدة أو ثلاث تمرات مثلاً). ولو تحدثت بهذا إلى بعض الجُهّال فقد يسخرون منك، لأنهم لا يفقهون إلى أي مدى هذا العالم منظّم، أما إذا كلّمتَ به عالماً متخصصاً فسيغوص في أفكاره ويدرس الموضوع للوقوف على أسبابه. ولقد اكتشفوا علل الكثير من التوصيات الدينية عن طريق العلوم التجريبية.
- إننا إذا تناولنا طعامنا من دون قيود ونمنا وصحونا بلا ضوابط وتصرفنا بانفلات لذهبت عقولنا شيئاً فشيئاً. ففي الحديث إن مقترف المعصية يذهب من عقله بما يتناسب والمعصية التي اقترفها: «مَن قارَفَ ذَنباً فارَقَهُ عَقلٌ لا يَرجِعُ إلَيهِ أبداً» (ميزان الحكمة/ الرواية6751).

هناك طريقتان لكي لا تصعب علينا الحياة في هذا العالم المعقد والمنظّم:

- الذي يرغب في قبول الدين والاقتناع بموضوع "ترك المعصية"، الذي هو العقدة الأساسية لقصة الدين، عليه أولاً أن يقتنع بأنه يعيش في عالم في منتهى التنظيم وأن ردود أفعال هذا العالم تنعكس عليه هو.
- إن قلتَ: "إن الحياة صعبة شاقة علينا مع كل هذا التعقيد والتنظيم الموجود في البيئة من حولنا!" نقول لك: "هناك طريقتان لإزالة هذه الصعوبة: الأولى أن تداوم على المراقبة وتعوّد نفسك احترام هذه القوانين المنظَّمة. والثانية هي أن الطفل إذا عاش مع أمه لم تصعب عليه الحياة، فعِش أنت أيضاً مع الله تعالى، فإنه سيوفر لك الملاذ ويصلح ما تفسده باستمرار. فإن أخطأت ونمت بين الطلوعين مثلاً فاستغفر الله علّه يتلافى خطأك. بل إن الله موجود لهذا الغرض تحديداً.. فالله لم يتركك قط كي ينظر إليك غير مبالٍ قائلاً: "ما شأني أنا؟! لولا توخّيتَ الحذر!" فإن الله يرعى عبده أكثر بكثير من رعاية الأم الشفوق الحنون لولدها.
- ثم لا تظن أنك كبرت ولست بحاجة إلى الله! إنك أصغر بكثير من أن تستقل عن الله تعالى.. إنك عاجز عن الافتراق عنه عز وجل لحظة واحدة! إذن فلُذ به دائماً!

- يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: «إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَر» (القمر/49)؛ أي خلقناه بمقدار معيّن محسوب بكل دقة! ويقول أيضاً: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلّ شَىْءٍ قَدْراً» (الطلاق/3)؛ أي مقداراً معيّناً. فإنك تعيش في عالم كل شيء فيه موجود بمقدار محدد، ولا يحق لك أن تتصرف فيه من دون مقدار ونسبة معيّنة. هذا ناهيك عن أن لجميع أفعالنا ردودَ أفعال يتم تسجيلها جميعاً في هذا العالم.
- علينا أن ننظر إلى العالم على اعتبار أنه عالم منظّم، شديد الإحكام، بالغ التعقيد والصرامة والانضباط قائم من حولنا ثم نبدأ فيه بانتهاج سلوك مشوب بالحذر! بالضبط كالحذر الذي نتوخّاه لدى قيادتنا السيارة وسط شوارع مكتظة. تخيّل كم من الحوادث ستحصل لو أننا لم نتحرَّ الحذر والدقة أثناء القيادة!
- الدين لم يُصمَّم إلا لأجواء منظّمة منضبطة كهذه، ولو أننا أهملنا المراقبة ولم نحذر في مثل هذا العالم المنظّم ولم نعتبر أن الله وأنبياءه هم من يعلّمنا الحذر ويرشدنا لانتهاج هذه المراقبة لواجهنا في تديّننا صعوبة! ولو لم نضع تنظيم العالم وكون أموره محسوبة بدقة بعين الاعتبار لكان من العسير علينا إقناع الناس والشباب حتى ببديهيات الدين الأولية.
-

علينا، خلال العملية التربوية لأبنائنا، أن نبيّن لهم أن العالمَ الذي نعيش فيه عالمُ فعلٍ وردّة فعل وأن تبعات الفوضى التي نخلقها فيه إنما تنعكس علينا نحن. النظام المسيطر على العالم نظام مهيب حقّاً ولا يتلاءم وأطباعنا نحن معاشر البشر، لذا يحاول الكثيرون تجاهله ليرتاحوا، ذلك أن الإنسان يحب أن يفعل ما يلَذّ له دون أن يتحكم فيه نظامٌ ما!

المشكلة الأساسية تكمن في التديّن، لا في الإيمان!

- النهج المتعارف في أصول العقائد يكفي في العادة لإيمان الناس واعتقادهم بالله عز وجل. نعم، ربما هناك مناهج أفضل، غير أن موضوعنا الآن ليس الإيمان، بل التديّن!
- التدين ربما يَصعُب حتى على المؤمنين! بل إن عدم إيمان الكثيرين بالله إنما يعود إلى كون التدين شاقاً عليهم، ولو كان

سهلاً يسيراً عليهم لتحدثوا عن الإيمان بكل سهولة. المشكلة الأساسية إذن تكمن في التدين، لا في الإيمان!

التدين حُلو ويجعل العيش حلواً أيضاً

- يتوهّم البعض إذ يتصوّر أن التديّن صعب. فعملية التدين تضم مراحل تربوية إذا اجتازها المرء غدَت حياتُه الدنيا حلوة بكل معنى الكلمة؛ أي ليس التدين حلواً بذاته فحسب، بل إنه يجعل عيش صاحبه حلواً أيضاً، أو فلنقل: إنه يُعِين على تحمّل مرارات الحياة. فالحياة الدنيا بحد ذاتها تنطوي على الكثير من المرارات والآلام التي إنْ لم يلتفت إليها البشر فإنهم يخدعون أنفسهم في واقع الأمر.
- إذا أصبح التديّن مهمّاً لشخص ما صارت "الذنوب" همّه الأساسي وقويَت علاقته بالله على خلفية المعاصي والاستغفار، وهذا تحديداً ما نشاهده في سيرة أولياء الله؛ فكأن أولياء الله يطيب لهم أن يتحدثوا إلى الله باستمرار حول معاصيهم (أي حول التوبة والاستغفار). على أنهم يراقبون أنفسهم في حياتهم اليومية أيضاً لئلا يقترفوا الخطيئة.
- ماذا ينبغي أن نصنع ليصبح "الكف عن المعصية" همَّنا الأول ولتتشكّل التوبة من الخطايا والاستغفار موضوع حوارنا مع الله جل وعلا؟

لا بد أن تتوفر فينا بعض الميزات لنقتنع بالتدين/ علينا أن نكون "أصحاب مَنهجَة في الحياة" "ونفعيين"

- للاقتناع بالتدين وترك المعصية ثمة بضع خصوصيات أولية على الإنسان أن يمتلكها. فقبل أن يدخل حضيرة التدين عليه أن يدرك ويتقبل حقيقة "أنني لا أستطيع العيش دون أن أُمَنهج حياتي". فالقبول بمنهجة الحياة هو بحد ذاته مرحلة من مراحل التربية ولا بد أن يبدأ من مطلع السابعة من العمر، ولا يُؤجَّل ولو عاماً واحداً! وكل مَن تأخّرت عمليته التربوية في هذا المجال عليه أن يجتهد لتدارك الموقف.
- النقطة الثانية هي أن على الإنسان أن يكون نفعياً وأن يطلب أقصى منافعه.. علينا أن نحرص على منافعنا كلها. بل إن الدين لا يعني التنازل عن منافعك! حتى الذي يبذل روحه في سبيل الله تعالى فإنه، في الحقيقة، يتاجر مع ربه! فما من عمل تُنجزه في سبيل الله إلا ويعطيك الله ربحه، حتى

وإن ذرفتَ الدموع على الإمام الحسين(ع) غراماً به! أي حتى وإن ترفّعتَ عن نفسك ونسيتها في ذروة لحظات العشق والغرام فسيسجّلها الله لك أيضاً ويُنيلك أجرها.

- مشكلتنا نحن معاشر البشر هي أننا – في الأعم الأغلب – لسنا نفعيين بمعنى الكلمة أبداً! أي إننا من المتنازلين عن أنفسهم عبثاً.. ممن «خَسِرَ الدُّنيَا وَالآخِرَة» (الحج/11)! فالله عز وجل يُقسِم في كتابه العزيز قائلاً: «وَالعَصْر * إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْر» (العصر/1-2)؛ أي إنه يخسر باستمرار! والمعنى هو: أيها الإنسان، حاذر أن تخسر!
- على الإنسان أن يكون نفعياً ويطالب بمنافعه جميعاً؛ الروحية منها، والمادية، والاجتماعية، والاعتبارية، ..الخ، لا أن يطالب بجزء من منافعه ويقنع به ويعيش في حالة من الكآبة المزمنة المستفحلة مفتقراً للكثير من منافعه يائساً من نيلها!

الخطوة الثالثة للاقتناع بالكف عن المعاصي هي أن نكون من "أهل السباق"

- المرحلة الثالثة للتدين والكف عن المعاصي هي أن يكون المرء من أهل السباق! فيا ترى إلى أي شيء في الإنسان نظرت الملائكة عندما خلقه الله فاعترضَت على خَلقه؟ لقد نظرت إلى "ما ينشب بين الناس من عداوات وخصومات" فكانت هذه أهم ميزة سلبية رأتها الملائكة في الإنسان!
- الإنسان مخلوق محتاج إلى باقي البشر. فإن أخضَعَ احتياجَه إلى الآخرين هذا "لبرنامج الدين" تحول إلى تنافس في الخيرات؛ «فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ» (البقرة/148) أي إنه سيحاول سبق الآخرين. ومن السباق هذا ينبثق التعاون والإيثار أيضاً! إذن الإيثار هو أيضاً أحد نتائج السباق هذا؛ فهو ينصحك بأن "تعطي ما تملك وما أنت بحاجة إليه إلى الآخر كي تسبقه!"

ما الذي يجعل الناس تتجه نحو التنابذ بدل التنافس؟

- الناس بحاجة إلى بعضهم البعض. فإن كانوا ضمن إطار الدين سُمّي احتياجهم هذا تنافساً وتسابقاً في الخيرات، أما إذا كانوا خارج نطاق الدين فسيندرج احتياجهم في خانة العداوة، وهي تبدأ بالحسد. والحسد ينشأ عند الأطفال منذ سن الثالثة! وهو أول صفة سيئة تظهر في الإنسان بعد حُب الراحة.

- ينجم الحسد عن تلك العلاقة القائمة بين الناس والتي يعمل الله تعالى على تحويلها إلى تنافس وتسابق. واللافت أن الناس يشعرون بالحساسية تجاه بعضهم البعض، لكنهم حينما يأتون إلى مسألة التدين لا يكون لأحدهم شأن بالآخر عادة؛ أي لا يودّون التنافس فيما بينهم وسبق بعضهم البعض في مضمار التدين، وهذا أمر سيئ. انظر كم صفحة من القرآن الكريم قرأ صديقُك اليوم؟ ألا تود أن تتقدم عليه؟! ألا يخامرك إحساسٌ ما بسبب سَبق صديقك لك؟! ألا تغبطه لذلك؟!
- الناس بحاجة إلى بعضهم البعض، فماذا نصنع ليكون هذا الاحتياج وهذا الارتباط فيما بينهم إيجابياً وبنّاءً؟ الحل هو أن نقحمهم في تنافس إيجابي. على أنّ للتنافس الإيجابي آدابه أيضاً؛ وهذه الآداب مندرجة ضمن منهاج يزوّدنا به الدين. البعض، إذ يشاهد الآثار السلبية للتنافس، تراه ينكر التنافس والتسابق من الأساس بحجة أنه "يخلق اضطراباً!" وهذه رؤية خاطئة.

ماذا يصنع المعلم التربوي لاجتثاث الحسد من نفوس الأطفال؟

- إذا أراد المعلم التربوي في مدرسة ما السموَّ بتلاميذه ليصبحوا متدينين وولائيين فيما بعد، فما الذي عليه صنعه؟ عليه أن يمحو صفة الحسد في نفوسهم؛ كأن يشجّعهم دوماً على تقبّل امتيازات زملائهم والحديث عنها.
- لا يجوز تقريع تلميذ بامتيازات تلميذ آخر! لا تقولوا له: "انظر إلى زميلك كيف هو مستواه الدراسي؟!" فقد تكون قابلية الأخير على الدراسة عالية، ثم قد لا يُعَدّ مستواه الدراسي الجيد امتيازاً كبيراً له!
- لا ينبغي لإمام المسجد إذا نظر إلى المؤتَمّين به أن يقول: "لاحظوا هؤلاء الذين يحضرون الجماعة بانتظام، إنهم في منتهى الإيمان!" فلا يجوز تقريع مُصَلّين على خلفية انتظام غيرهم! إذ لربما كان هؤلاء المنَظّمون منَظّمين في كل شيء عموماً فلا يُعد انتظامهم (بالصلاة) امتيازاً خاصاً لهم. ولعل هذا الذي لا يصلي في وقتها إلا أحياناً أشد تقوى من أولئك!
- إحدى الأمور التربوية المهمة هي أن يُقرّ أفراد الجماعة "بالنظام التسخيري"؛ أي أن يقرّوا بأنه لكل فرد من الناس امتياز، ولكل واحد منهم نقطة ضعف.. أن يقرّوا الاثنين معاً.

علينا أن نفهّم التلميذ المُجِد وذاك الضعيف في الصف معاً بأنه "لا أنت بأدنى من الباقين، ولا ذاك بأعلى منهم!" فلا ينبغي أن يتهيّبَ فردٌ فرداً، وليعترف كلّ فرد بالآخر؛ كأن يقول طالب عن الطالب المحاذي له: "ذاكرته في منتهى القوة"، ويقول الثاني في الأول: "هو بارع جداً في حل المسائل". فلا نحطّمَنّ الأشخاص بسبب امتلاكهم صفة أو افتقارهم لها، بل لنرى لكل فرد امتيازاً خاصاً به.

- لا ينبغي أن نعمل – مخافة التصادم والاشتباك –على أن لا يتصل الناس مع بعضهم، ولا يقيسوا بعضهم ببعض، ولا يتسابقوا فيما بينهم! فتصرّف كهذا هو تصرف غير صحيح وهو ركونٌ إلى الدعَة، فلسنا في صدد تربية مجموعة من الخراف!
- يجب أن نُقحم الناس في حلبة تنافس وسباق، لكن علينا أن ننهاهم عن التحاسد والتفاضل فيما بينهم. لكن عليهم جميعاً – في الوقت ذاته –أن يتسابقوا مع بعضهم. تسابَق يا أخي لكن لا توبّخ الآخر.. تسابَق ولا ترَ لنفسك فضلاً.. تسابَق ولا تحسد.. تسابَق لكن لا تفرح بسقوط أحد.

الخصوصية الرابعة الضرورية للاقتناع بالتدين هي "أن يعلم الإنسان أنه يعيش في عالم منظّم"

- لا بد للإنسان من امتلاك بضع خصوصيات تؤهله لتقبل الدين وتقنعه بالإقلاع عن المعاصي. فناهيك عن كون المرء نفعياً، وذا منهج، وأهل تسابق – وهو ما ذكرناه في المحاضرات الفائتة – فإن الخصوصية أو العامل الرابع الضروري للاقتناع بالتدين هو أن يقتنع المرء بأنه: أيٌّ عالم منَظَّم ومدروس هذا العالم الذي يعيش فيه! عليه أن يدرك أن هذا العالم هو عالم فعل وردة فعل، وأن هناك ردة فعل لكل فعل تفعلُه. نعم، إذا أخطأت فثمة فوق رأسك "ربٌّ يتدارك أخطاءك ويدعمك".
- إن للعالم نظاماً صارماً في غاية الاستحكام.. إن نظام هذا العالم مهيب حقّاً، وهو لا يتلاءم وطباعنا نحن معاشر البشر! والناس في العادة يغفلون عن هذا النظام، ويحاولون تناسيه سعياً منهم لمُجاراته. فالإنسان يحب أن يفعل ما يحلو له دون أن يحكمه نظام ما، حتى أن الله تعالى قد خلق الجنة وأخبرنا أنك في الجنة تفعل ما يطيب لك، فليس هناك أيّ نظام يحكمك! «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ» (الزخرف/71).

لا بد أن يفهم الأطفال أثناء العملية التربوية كيف أن النظام المسيطر على العالم يقهر الإنسان

- هذه الخصوصية الرابعة هي في الحقيقة بمثابة معرفة تجاه هذا العالم. إن علينا أن نخبر الأطفال في عمليتنا التربوية كم أن هذا العالم عالم مُنظَّم! وأنه عالم فعل وردة فعل، وأن الفوضى التي نخلقها فيه إنما تنعكس نتائجها علينا نحن وتُلحق بنا ضرراً.
- والإنسان خاضع لسلطة هذا النظام المهيمن على العالم. نعم قد يستطيع الإنسان التغلب على قوانين العالم الصارمة؛ كتغلبه على ظاهرتي البرودة والحرارة، لكن ثمة ظاهرة مثل "الزمن" ليس من ميسور الإنسان التفوق عليها؛ فالزمن يمر بكل قسوة قاهراً الإنسان، قائلاً له: "كن مَن تكون، فقد انتهى زمنك!"

الالتفات إلى مرور "الزمان" هو عنصر جوهري في تنشئة الجيل الشاب

- يُعدّ الالتفات إلى "الزمان"، كأحد عناصر النظام المهيمن على العالم، النظام الذي يحيا الإنسان مقهوراً له - يُعدّ عنصراً جوهرياً وركيزة تربوية في تنشئة الجيل الشاب. فعن أمير المؤمنين(ع)، وهو معلم الأمة الإسلامية بعد رسول الله(ص) والذي يسعى لتعليم الجيل الشاب الدين، أنه يخاطب الشاب في الكتاب المرقم 31 من نهج البلاغة: «مِنَ اَلْوَالِدِ اَلْفَانِ اَلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ»، والمُقِرّ لعُنف هذا الزمان، ولقاهريّته! «...اَلْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا» وللدهر! أي: إنني لم أستطع التسلط على هذا الدهر، بل هو الذي تسلط عليَّ؛ وما الدهر إلا هذا التقلب للأيام وهذه الطبيعة العصية على التغيُّر والتبدل!
- على الإنسان أن يدرك هذا النظام المسيطر على الحياة، ومن المسائل الهامة لإدراكه الالتفات إلى مُضي الزمان بلا هوادة؛ فلا بد للإنسان – على سبيل المثال – أن يقر "بالموت" كواقع يفرضه عليه تقلّب الأيام. لكن ألا ينخفض منسوب نشاطنا في الحياة إذا أدركنا هذا النظام المهيب وأقررنا به؟! بلى، سينخفض، لكن علينا أن نتزوّد بالنشاط من منبعه الحقيقي، لا أن نسعى وراء النشاط غافلين عن النظام الذي يسود العالم، قائلين مثلاً: "لا تفكر بالموت، وعش أيامك القلائل في الدنيا بسعادة!"

إن الإنسان ليطغى إذا لم يرَ نفسه مقهوراً لنظام العالم!

- يقول تعالى في كتابه العزيز: «إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ» (العلق/6)؛ أي: يا للناس! ما إن يروا أنفسهم مستغنين حتى يطغون! وهذه من أوائل الآيات التي نزلت على نبينا الكريم(ص)، فهي إذن تشير إلى مدى أهمية "طغيان الإنسان".
- ما هي الخطوة الأولى لتبديد حالة الاستغناء هذه التي تراود ابن آدم؟ إنها الطبيعة! فقبل أن تجعل هذا الإنسان يستسلم لله عز وجل اجعله يستسلم للطبيعة ولهذا النظام الذي يسود العالم. فلا بد للإنسان أن يلمس ضعفه تجاه الطبيعة ونظام العالم.. فهو إن لم يرَ نفسه خاضعاً لسلطة الكون ونظام العالم هذا فإنه سيطغى.
- حتى في المواطن التي يتغلب فيها الإنسان على الطبيعة فإنه - في الحقيقة - يجاري القوانين المهيمنة عليها، لا أنه يُبطل هذه القوانين! فعندما يتغلب – مثلاً - على الجاذبية الأرضية ويطير في السماء فإنه يستعين بقوانين الطبيعة ذاتها، وإلا فإن قانون الجاذبية يستحيل محوه!

إذا تأهّلتَ للعيش في هذه الدنيا تفتّحَت أبواب العالم الآخر أمام ناظريك!

- إنك إن شاهَدتَ هذا العالم المنظّم، وكنتَ – مضافاً إلى هذا – "نفعياً، ومُمَنهجاً، وأهل تنافس وتسابق" فستكون أهلاً للعيش في هذه الدنيا، وستتفتح أبواب العالم الآخر أمام ناظريك. فحينما تكون إنساناً قد ذاق طعم هذه الحياة وصار أهلاً للعيش في هذا العالم فستُكشف أمامك مشاهد العالم الآخر وستكون حياتك قد شرعَت للتو!
- ما الذي يوجد في العالم الآخر ذاك؟ إنه عالم خالد.. خالد إلى الأبد! وقد تحدث الله عز وجل في كتابه العزيز عن هذا الموضوع زهاء الثمانين مرة. لكن ما فرق ذلك العالم عن هذا؟ في هذا العالم كل شيء - تقريباً - مفروض فرضاً. ولا نريد بالطبع أن نسلك مسلك الجبرية، فإن للإنسان اختياراته على أية حال، غير أن اختياراته هي ضمن دائرة ما رسمه الله له. أما في ذلك العالم فسيكون كل شيء – من الصفر حتى المائة - باختيارك!
- في هذا العالم هل أنت الذي قرّرتَ من يكون أبويك؟! وهل أنت الذي حدّدتَ الموهبة التي تُعطاها؟ والصورة التي تُجعَل

عليها؟ وفي أي مستوى من المدينة ستعيش؟ ومَن يكون جيرانك؟ وعندما تتزوج فهل أنت حقاً مَن يختار زوجك؟ فأنت في النهاية تصطفي خياراً من بين بضع خيارات، لكن مَن الذي وضع هذه الخيارات القليلة أمامك؟

- على أن لدينا بعض الصلاحيات، وبهذه الصلاحيات القليلة التي في حوزتنا سنعمل على تنظيم عالمنا الآخر إلى الأبد.. إنك ستختار (في ذلك العالم) بيتك لبنة لبنة، وتحدد مساحته، وتختار زوجك، وتصطفي جيرانك، وكل شيء، وهي أمور ستبقى ثابتة لك إلى الأبد! ففي هذا العالم أنت في طور اختيار "حياتك في العالم الآخر" وهي حياة ستبقى لك إلى أبد الآبدين، فأنت لن تستطيع العودة إلى هذه الدنيا لإعادة بلورة حياتك هناك، كما أنه ليس هناك مجال للتغيير!

